

تقديم

سعيد يقطين

يقول مثل مغربي : " أسألوا الضيف عن المغرب ". و المغرب آلة عزيزة في كل بيت، إذ بها يغرف اللحم و الخضر و المرق ليوضع في أواني الأكل. و معنى سؤال الضيف عن المغرب، أن عينيه كبيرتان تران ما لا يرى أهل البيت. إنهم في غمرة صلاتهم بالمكان الذي يعيشون فيه أبدا لا ينتبهون إلى أشياءهم و هي قريبة منهم. أما الضيف فعيناه تبصران كل شيء في البيت. و من ثم قدرة الضيف على أن يرى أهل البيت أشياءهم التي يرونها و لا يبصرونها. و هناك في رواية أخرى للمثل نفسه إضافة: يعرف. أي " اسألوا الضيف عن المغرب، يعرف". في هذه الإضافة تشديد على قدرة الضيف على معرفة ما في البيت، ربّما أكثر من أهل البيت. وحدثني أتذكر هذا المثل و أنا أتقدم في قراءة "نص": "ليالي سلا" للكاتب المكسيكي رويث دوينياص. إنه يجوب شوارع مدن المغرب و حواريه و زواياه، يربط الماضي بالحاضر، و يجول في ذاكرة المغرب الحديث واصلًا وقائع الطارف بحكايات التليد. فإذا العين ذكية، و السرد سليل هذه التربة، يتشرب المنسي و يتسرب إلى ما لا تراه العين الأليفة أو تلتفت إليه ببلاهة العين التي ترى المغرفة و لا تبصرها.

و أنا أساير بشوق و شغف تتقلات الراوي الأجنبي و هو يحكي عن تفاصيلنا و جزئيات أسياننا الصغيرة تذكرت قصيدة أدونيس الرائعة عن فاس- مراكش و الفضاء ينسج التأويل. كنت قاسيا وقتها، و أنا في فاس، حين اعتبرتها " إدانة " للشعر المغربي أمام مجموعة من الأصدقاء الشعراء الذين قلت لهم " حتى هنا يمكن أن تكون شاعرا ! " . و على شعرنا المغربي أن يمثل الوجدان و الواقع المغربيين، و إلا فهو كلام برآني عنّا.

هذه الفكرة هي التي حاولت تجسيدها في ما أسميه " المغرب الثقافي " . و للأسف ما يزال إبداعنا الشعري و الروائي بعيدا عن تمثل هذا الحس العميق الذي يمثل الذات الخاصة.

في " ليالي سلا " أجد هذا " المغرب الثقافي " بكل حمولاته الوجودية و الوجدانية ينبض بالحياة من منظور خاص تمثله رؤية رويث دوينياص بما فيها من عمق في التقاط التفاصيل البسيطة و الصغيرة ، و تصعيدها إلى مجال الفن الرفيع في بعده الإنساني. هذا ما أثارني بشدة في " ليالي سلا".

كثيرا ما تحدثنا عن الفولكلور في الكتابة من منظور قدهي، و لكننا لم نتسائل قط عن حدود "الفولكلوري" و بداية " الواقعي " ، فأضعنا خصوصية الحياة، و روح الواقع. و ابتعدنا بذلك عن الإبداع في بعده الإنساني و الذي لا يمكن أن يتجسد إلا من خلال "العين الذكية" و هي تمسك بتلابيب اليومي في أدق تفاصيله، لتقدمه من خلال نسيج سردي يرفعه إلى مستوى تفاعل الإنسان مع العالم.

لقد التفت الكاتب رويث دوينياص إلى أشياء المغرب الصغيرة. و لم يكتف بذلك فعاد إلى المغرب الثقافي في تاريخه و حضارته القديمين فقدم نصا يرى واقعا حيا فينبش في ذاكرته فوجد دلالة الأشياء محملة بإرث التاريخ ، فأمسك بمفتاح سر الجميل و القبيح في الحركة و السكون، و الذهاب و الإياب. و في مسار يمتد في الفضاء من الرباط إلى الجنوب إلى الشمال ليعود من جديد إلى الرباط، فإذا الكل "ليالي سلا" .

نسيج يحبل بالوقائع و الذكريات و الحكايات . تلك نفحات من رؤية تفاعلية مع الواقع تتجسد من خلال تقنية سردية لا يمتلكها سوى كبار الكتاب، و رويث دوينياص واحد منهم .

تفاعل الزميل محمد دربال مع الكاتب المكسيكي و نصه "ليالي سلا" فحافظ على جمال اللغة الإسبانية و هي تعانق عبقرية اللغة العربية ، فقدم نصا عربي اللغة ، مغربي الملامح ، أندلسي السرد. فكان النص ينساب و هو يرصد تفاصيل الحياة المغربية كما تتقدم إلينا من خلال عين الضيف التي رأت المغرب ، فإذا هي تعرف .

سعيد يقطين

تمارة 07 مارس 2003

في السرد

السرد هو فن الحكوي أو القص في قالب مثير، جذاب، ذكي، جميل، ومنتاسق لأحداث وقعت بالفعل (أحداث تاريخية)، حركات اجتماعية وسياسية، علاقات بين رجال ونساء، حكايات معينة لأشخاص خصوصيين، إلخ، أو حكايات وأفكار نابعة من الخيال (تأملات، استيهامات،

استحضارات، أحلام، خواطر، الخ). أو خليط من هذا وذاك. بهذا الشكل يصبح السرد، الذي يتمظهر من خلال شكلين أو نوعين: القصة القصيرة و الرواية، إما واقعا أوخيالا(خيال صرف) أو تشكيلا يُولف الواقع بالخيال لإنتاج عمل ذي طابع أدبي راق.

فالسرد ، كنوع أدبي، ظهر مع الإنسان، الذي يجد نفسه أبدا في حاجة إلى التواصل مع الآخرين ومن أجل ذلك كان عليه أن يبدع لغة تمكنه من إيصال أفكاره وآرائه، أحلامه، هواجسه وعذاباتة و الدوافع التي جعلته يتشبث بالبقاء و يتوالد ويتطور. بمعنى آخر، السرد قديم في الزمن قدم الإنسان الذي عمر كوكبنا هذا.

في البدء كان السرد شفويا، مباشرا وحييا لوقائع، حالات وأحداث استرعت انتباه الإنسان وجعلته يحكيها لبعض من عند ياته مطنبا ومختلعا لإدهاش وإقناع الآخرين ولجعلهم يعتقدون أنها وقائع حقيقية. بهذه الطريقة ظهرت أكبر الأساطير(المينوتور، آلهة المعبد الإغريقي، المعبودات المصرية، إلخ) و الخرافات الجميلة التي غدت حياة الناس و خيالهم خلال قرون و التي استمرت إلى يومنا هذا.

إن العمل السردى الأكثر قيمة ربما في السرديات العالمية، و الذي عرفه وقراه ملايين الناس، هو الحكايات العربية التي جمعت تحت عنوان ألف ليلة وليلة، و التي أضيفت لها نصوص أخرى شهيرة كالتحول La metamórfosis لأفيديوس Ovidio والديكامرون DECAMERON لبوكاشيو Boccacio والهبتامرون Heptameron لمرغريته نبارا Margarita navarra من بين مؤلفات أخرى شهيرة، هذا من جهة.

من جهة أخرى، ينحدر الفرع الثاني من السرد، أي الرواية، من الملحمة التي كان الشعراء الإغريق و اليونان ينظمون بشكل متقن للغاية: إلياذة وأوديسة هوميروس، إنيادة فرجيليوس هي بعض القصائد الملحمية (أغراضها الأساسية هي الحروب و المغامرات العديدة التي يعيشها أبطالها) وتعتبر من أروع الملاحم التي أخذت، بعد ذلك بكثير، شكلا أدبيا أصبح يعرف اليوم بالرواية. لقد طورت كل الشعوب و الثقافات أشكالها السردية الخاصة بها. في لغتنا، يظهر السرد مرتبطا بتكون الممالك التي تكون اليوم البلد الذي يسمى إسبانيا، وبصراعه الطويل ضد العرب لإعادة الفتح (ثمانية قرون)، و بتوحيد تلك الممالك في دولة واحدة ممثلة بالتاج الإسباني.

سمحت قصائد الحماسة Cantares de gesta (كقصيدة سيدي Mio cid) وقصائد أخرى (كفرنان كونثالث، الأمراء السبعة للآرا Lara ، إلخ) وكل الأعمال الأخرى المنحدرة من رحم الملحمة الكلاسيكية، خلال العصر الذهبي الإسباني ق (17) بزوغ الرواية باللغة القشتالية بفضل بعض الأعمال ك: الثليستينا Celestina للكاتب فرناندو دي روخاص Fernando de Rojas والتي تعتبر أول رواية كتبت بالإسبانية بالإضافة إلى معلمة ميغيل دي ثربانطيس ساأبيدرا Miguel de Cervantes Saavedra دون كيخوطي دي لا مانتشا Don Quijote de La Mancha .

أما في المكسيك فقد ظهرت الرواية من خلال واحدة من تحقيقاتها أو أشكالها الأكثر تسلية وفتنة نعني بذلك الهجاء أو النقد اللاذع، (La Sátira) من خلال العمل المعروف الشهير البغاء الأجرى El perequillo sarniento للكاتب خوسي خواكين فرناندث دي ليثاردى (José Joaquín de la Sarta (مكسيكو (1776 - 1827)) وهو عبارة عن صورة رائعة للمجتمع المكسيكي قبل الاستقلال (1810- 1821).

بعد ذلك، وخلال القرن التاسع عشر، سيتعاطى كثير من الكتاب المرموقين للرواية و القصة القصيرة. و تبرز في هذا الإطار أسماء خوستو سييرا أوريلي Justo Sierra O'Reilly (ابنة اليهودي) خوصي لوبيث بورتيو إي روخاص (قطعة أرض) بيثنتي ريبا بلاثيو Vicente Riva Palacio (مارتين كاراثونا) Martin GARATUZA، إكناصيو مانويل أطميرانو Ignacio Manuel Altamirano (عيد ميلاد في الجبال navidad en las montañas) ومانويل باينو Manuel Payno (لصوص النهر البارد Los bandidos del río frío)

في 1910 اندلعت الثورة المكسيكية، أول ثورة اجتماعية عرفها العالم خلال القرن XX و التي جاءت لتغيير البلاد جذريا، فولدت مشروعا سرديا بفضل كتاب أمثال مارتين لويس كوتمان Martín luis Guzmán ماريانو أوثيولا MarianoAzuela رفائيل ف.مونيوث Muñoz.F.Rafael وآخرين، تركوا شهادات حية عن أحداث تلك المرحلة في روايات وقصص تستحق الذكر (ظل الزعيم La sombra del caudillo) ، الطبقات السفلى Los de abajo، هلموا مع بانتشوبيا vámonos con Pancho Villa على التوالي) و التي أصبحت اليوم جزءا أساسيا من ثقافة كل المكسيكيين.

فانطلاقاً من هذه المؤلفات سيتطور السرد المكسيكي إلى أن يصل إلى توهجه الحالي بفضل كتاب من عيار أكوستين يانيث Agustín yáñes ، خوان رولفو Juan Rulfo ، خوان خوسي أريولا Juan José Arreola وكارلوس فوينطس Carlos Fuentes من بين لائحة طويلة لا مجال لسردها الآن في هذا العرض المتواضع، و التي سنحاول تقديم أكبر عدد منها للقراء الأعزاء .

إلى ألفارو موتيس

ALVARO Mutis

**الحقيقة الأدبية تعلو على الحقيقة التاريخية ، فهي سخية
تتجدد في كل وعي، واحدة ومتعددة في الآن نفسه ، لا
تحتاج إلى برهنة، تكفي بذاتها...**

شجرة أنساب

سلا القديمة، سلا القراصنة: أخت الرباط، المدينة العتيقة التي كانت تسمى سلا الجديدة، جارة شالة، مدينة الأموات فوق سلا المستعمرة - الرومانية كاللوكسس و التي تناسلت ذريتها مع البربر الذين لم يكونوا سلتيين ولا باسكيين ولا كنعانيين، بربر فقط، و الذين كانوا هنا منذ الأبد، فأنجبوا بدورهم أحفادا مع الفينيقيين و القرطاجيين واللاتين الأفارقة ثم العرب - أبناء عقبة ابن نافع ومولاي إدريس الذي قتل مسموما من طرف هارون الرشيد، الخليفة البغدادي القاسي - الذين أنجبوا مغاربة وأندلسيين و فتحوا دمهم للمرثدين الأوربيين - ذرية علماء، رجال دين، قراصنة، أولياء، حكماء، نهابون وشحاذون - الذين تكاثروا مع سلالة جوبا وكليوباترة سلين Cleopatra Selene - ابنة ماركو أنطونيو - MarcoAntonio خلف جليل لأسياد وفاتحين، أصل ملكة هُجرت لأنها تبعت جنديا أجنبيا إلى الصحراء: مارلين، الديتريش، Marlene Dietrich ، التي قضت من الوحدة، ملفوفة بالأزرق، وعيناها أهلتان بسماء المغرب.

ليلة الرباط

حين تلامس الريح بشرتي وتشعلها أتقدم مثقلا في اتجاه
الجمرك. استيقظ إذن في كابوس آخر، في طوابير من المحكومين أو
في صراطات تعود إلى المطهر. أبحث عن متكأ فوق الجسور الضيقة أو
على المسافرين، أواجه الخراب، النظرات الفاترة لبعض العابرين و
التفحص البوليسي الذي يعري العيون ويجعل من الهواء محمية للتنفس
فقط. فمي ظمآن. بعد ذلك تختم أوراق رسمية بطوابع زرقاء، حمراء

وسوداء كلحم المجازر. من البؤبؤ تخرج شهب من الغيظ تشعل ثنانيا
دقيقة فتحيك شبكة تلف وتشل. أحاول الخروج من الجلبة بيدين تزان
عرقا. أتمكن من ذلك بين احتكاك الحماليين وثنانتهم . تصبح أمتعتي
أكثر ثقلا كلما تقدمت و الباب لا تبدو في المتناول. همسات أصوات
وصراخ يجعلان المنظر شبيها بقاعة انتظار سقالة الإعدام.

ثمة غيظ يتفجر هناك، فجأة على شكل ضجيج لا يتصور وعلى
شكل حمل بلغات معروفة وبتعابير سرية. قناع الدهشة يؤكد مرة أخرى
أني أجنبي. أستعمل أثقالي كمكباس لسحق طريقي داخل
الحشد. فأتلقي سبابا لم أعره أي اهتمام. ينحصر الكون في الدائرة التي
يكونها البشر من حولي. غايتي الفرار، الابتعاد.

تتألى أمامي غابة المعمورة كما في الحكايات . أوراقها الجافة
تخشخش حين تجرفها الريح من على الأغصان، بينما مئات الجياد تحب
في حواسي وتتقدم متحدية على الطريق. ينتشل طائر الرخ عربتنا،
ينفث نورا ويطفئ ظلال الأشجار. بعيدا عن هنا يلاحق قطيع من وحيد
القرن انعكاس ثلاثة أقمار تتدحرج على سطح البحر. يسألونني فأتكهن
أجوبة. أحتقر الدقة حين أتقصى مصير الخيامر و الملوك المجهولين،
لكي أستعيد الحياة في كلمات السائق حين يصف مخلوقات وفضاءات
عجائبية. يسألني هذا الأخير عن أصلي، ينصت بانتباه فيدرك أن شكلا
جديدا من الحقيقة ينبثق من الفكر. تتقدم البوسنتورات

Bucentauros لمساعدتنا وهي تحب أيضا بالمعمورة. أستعيد الآن الجسد.
يдай المتشججتان تنفتحان فتشع منهما لآلى دقيقة كعيون الأفعوان.

تصمت الريح للحظة ويتوقف خب قطع وحيد القرن، الذي سيصل بعد قليل إلى الساحل ليتحول إلى براكات تنازل أربيات.

جمهورية الضفتين واقع. مدينتان، كبرتقالة شطرها سكين المساء، تبديان أسوارا لا يمكن أن تتلاشى إلا بمفاتيح الإدراك. من الضفة الشمالية تبدو الصوامع متحدية بكثرتها الأبراج الجنوبية. تحت ظلال الجسر ينساب النهر بطيئا و الانعكاسات المخملية تداعب نداوته.

رباط الفتح يطهر عيني، يشحذ حواسي ويفتح طريقا للتصديق. نوافذ لا تحصى و عيون أخرى هي إعلان صريح عن الوصول. يتوقف الزمن. البراقات التي لحقتنا الآن تقرر صعود الراية لتصل إلى جنة السلطان، بعد ذلك ستنحدر بين المنازل وهي قافلة جمال وديعة.

القصة

كنت فوق التل بين منازل بيضاء وحيطان متورمة، هناك حيث المدافع الصدئة، قرب مقبرة الشهداء. هنالك، المياه، المنارة، المرطم نسيم الشاطئ المنعش خفف حدة اللهب الذي يضطرم فوق رأسي فتذكرت أحمد، الإنجليزي المرتد، المغامر. كنت أتساءل لماذا هجر أصله. أي سلطة تخفي تلك النظرة الحانقة وذلك الشعر التبني الأهلب؟ من هناك، كانت سلا الجديدة وسلا القديمة تديان رباطة جأش تحت شمس الظهيرة حين تهزمان المحيط تحت أسوارهما. أمام سوق الغزل تنتصب القصة. أقواس الرواق الخمسة التي تحاصرها نقوش ناتئة وأحرف كوفية، سعف أو أشكال بحرية، تفتح نفقا في اتجاه العتمة والإبهام : غرفة الحراس، باب بلاطي، حجرة استقبال، محكمة، نطاق للاحتفاظ بأشباح الهورنا تشيروس Hornacheros في صراعهم مع أندلسيي سلا الجديدة.

من القبب ينحدر توا الوداية المخيفون. فررت مرعوبا حتى فسقية تفتح الطريق إلى المسجد. داخل القصة كانت بوابات المنازل تزدان بمساميرها المصاغة . في الجهة العليا، بين جدران قديمة يكسوها العشب، قريبة من برج القراصنة، ينصهر الماضي بالحاضر. عدت تاركا ورائي المقبرة البحرية. التمسست الصبر وفكرت من جديد في أحمد ومفتاحه السحري لفتح قلوب البشر.

الآن وأنا عائد من جديد بمحاذاة سور مولاي رشيد، أرى حديقة الأندلس تمتد خلف البوابة الحديدية. ومرة أخرى تكتسح هذه الشمس كل شئ: دوار ينزل في شرفات حتى الحصون، و الناعورة، وماء الفسقية الشفاف أكثر من أي وقت مضى وعبق الورد وهذا الحضور المبهم المتخفي دوما تحت جناحي جعل مقدس و الذي سيسلخني حتما في النهاية.أحاذي الحصن وأعاود الصعود بقلب خافق. عندما أتجاوز عقبة زنقة بازو المتعرجة أوهم بالإنظار متأكدا بأنني مراقب.وما أن أصل إلى المنعرج الصغير حتى أصدق إلى المقهى المغربي (le Café Maure) .

من السقيفة المعشوشبة تنعكس مطرزة أنوار وظلال. الفسيفساء تغطي المقاعد، تتوالى وتتتابع في الفناء كله حتى تصل إلى حزم النعناع الذي جني نوا وينتظر الطهي.على الطاولة الصغيرة يتصاعد دخان النقيع حيث تطفو طبقة سميكة من أوراق النعناع.

من الجهة الشرقية ينساب بورقراق بطينا وهو يتسع كلما اقترب من المحيط و الطيور البحرية تحلق فوق البرك النهرية وتقفز من مركب إلى آخر مزعجة الصيادين الذين يوصلونها من حبل إلى آخر حتى الشاطئ.بعد ذلك تنفتح أشرعة المراكب ، وفوق السفن الإفريقية تلمع صواري لاتينية ويتقدم النهار.يصل أ بورقراق إلى المصب، فتقلقني مرة أخرى أسرار الغريب.

ألوك أوراق النعناع فيخترق أحشائي خيط بارد، أغمض عيني فتستحيل السقيفة مظلة. علي الآن أن أصلي، أن أبعد العزلة، الموت، الصمت.... وبه أشهد.

متاهة

كانت الشمس متوهجة . تمتد الظلال جهة المغيب ومن النافذة المشرعة تتسلق ضوءا النهار. من إحدى الشرفات بحثت عن الأفق، في المدى تبدو ضفائر الأطلسي الجبلية. في الأسفل تلتقي مروج متناسقة، تتناثر ممراتها في اتجاه الجهات الست الرئيسية. تسقط السماء هادئة في البركة، تخرقها طيور سوداء مرفرفة نحو الأعماق. كانت تعريشات المكان المتعددة ترسم ممرات من ظلال وضياء فوق المكعبات الحجرية. وكان السميت المتوهج قد لمع الماء، وأصبحت أشجار السر و أعمدة تسند قبة السماء الزرقاء ومدت شجرة الحياة الوارفة أغصانها في هذه الأرض.

تأملت بعمق زواج الينابيع و الحدائق، وكذلك الأسيجة الخضراء وما تحويه من أشكال. أحسست بيد دافئة الملمس على عنقي، خلقتها حقيقة فالتفتت لكن الانعكاسات وكثافة الأعشاب تجعلان الرؤية مستحيلة. احتمى شكل أبيض بأغصان الرمانة. أهى المغولية التي تخفي عني ذلك المحيا أم هو السنط الذي كان يساعدها على الفرار؟ خف الغليان فسمعت أصواتا أخرى. حدست نبض جلاب، قفطان، حائك... و العيون، آه، نعم، العيون. زوبعة بحرية، البشرة ناعمة كالسفرجل، والعنق شجرة خرجية... غناء الريح في طرفة الأرز...

عندما نزلت استحبال ذلك النسيح، الذي كان يبدو من فوق مدخلا للخلود، إلى متاهة بغاباتها وينايعها، تتألق فيها الروائح الطيبة بعطر شجر الصندل. تابعت طريقي تحت النخيل الذي يخترقه ممر من البردي، وفجأة أسمع من حديد وقع أقدام يتلاشى خلف الياسمين. واصلت السير جهة الرند. الحصابان و المنثور حبا امرأة كانت تعلم ملاحقتي لها فظلت دائما متوارية. نبات الرقم وعباد الشمس جعلنا تحركي صعبا في ذلك الفضاء المزهر المشبع بطيب الخروب: لقد أصبحت هذه المتاهة تهددني بالضياع...

لا الجكرندات التي تنفث قطعا سماوية ولا الخزامى بهيجانها الأزرق ، ولا السرخس الذي يبدو امتدادا للقسوس المتسلق، كل هذه الحلة الفردوسية، لم تكن لتستطيع في تلك اللحظة أن تهدئ رغبتني الجامحة في الصراخ تحت الجميز: لقد كنت أعلم ذلك، لن أجد المخرج ثانية...

تمارة

ألح علي عباس خلال أسابيع لأزور الساحل الجنوبي الذي يختلف عن ضفة سلا الشمالية بشريط مصطفاته، فبدت لي الفرصة مواتية لإرضائه .عندما وصلت إلى السوق المركزي كان عباس في انتظاري،وبسرعة أخذنا طريقنا بمحاذاة السور الموحدى حتى باب العلو . إحدى بوابات المدينة القديمة. ومن هناك عرجنا جهة حي المحيط.

حيطان المقبرة البيض قادتنا للتو إلى شارع المختار جزوليت العريض، الذي يحاذي الساحل ذي الصفائح الغرانيتية التي تنحدر كشرفات في اتجاه البحر منتظرة صرير الموج.وفجأة أصبحنا في الطريق المؤدية إلى الدار البيضاء محاطين بموكب من الدراجات الهوائية الآتية من الضواحي.كان عباس، بوحي من الفضاءات التي نعبرها، يحكي قصصا عن الحرب العالمية الثانية مشيرا جهة بعض التلال حيث البقايا الصدئة لعدة دبابات.

قبل الوصول إلى الهرهورة تذكر مؤامرة،متداولة في الأوساط الشعبية، فأشار إلى المنبسط الذي يحاذي البحر وحدد مكان الإعدام الذي أحبط آمال المتمردين. مقتنعا أكثر من أي وقت مضى بجدوى هذا السفر، كان عباس يغامر بشروحات جديدة. حين وصلنا إلى شاطئ سيدي العابد الذهبي بدأ عباس يعد الوحوش البحرية العديدة التي جنحت في ذلك المكان، مؤكدا أن الجنوح وقع هناك بالضبط، وأوضح كذلك أن تلك الظواهر

سجلت في إبانها من لدن مربى المائيات لمدينة الدار البيضاء . تمشينا فوق تلال الشاطئ الرملية الناعمة مدة طويلة . كانت الريح تحمل إلينا ضحكات بعض الصبية وكان على عباس أن يثبت طربوشه بعصبية . توقفنا أمام المحيط فكسر عباس صمته وقال:

- الحياة في البحر كالحياة على الأرض، مليئة بالسعادة أو الشقاء، ألا تظنون؟ إذا كانت الحياة على الأرض غير آمنة، لماذا يجب أن تكون أعماق المحيط عكس ذلك؟ مشاكل الوجود واحدة في آخر المطاف.

معتادا كما كنت على هذا النوع من الأحكام، بقيت لا مباليا:

وبكلمات كالسالفات حكى قصة:

-في تمارة، منذ سنوات قليلة حدث شئ مهم - أضاف عباس خجولا كمن كاد أن يخفي حدثا لا يغتفر إخفاؤه عن أجنبي -هناك بالضبط. ومد يده المدبوغة نحو منطقة بعيدة ترك انسحاب الماء فوقها أقواسا رملية بليلة - حدث ذلك في ليلة مقمرة. في طريق عودته من عمله فوجئ رجل بوجود جنية بحرية.... أتفهمونني؟ ألح بشدة ليرغميني على تقبل حكايته، وذلك ما فعلته بكل عناية وإتقان حتى أتجنب كل انفعال قد يفضحني.

- إن جنيات البحر كائنات بجسد امرأة من الوسط إلى الرأس، و الباقي كالسمكة

- أضاف عباس - فيما قبل كان الناس يعتقدون العكس، عبث أليس كذلك؟ وأؤكد لكم أنها كائنات كاملة. ولكنكم لستم مرغمين على تصديقي

- قالها عباس بصدق أكيد - فكل ما أعرف عنها أخذته من رسومات بعض السفن البحرية القديمة...

-جنية مائية؟ سألت متظاهرا بالإهتمام.

- mais oui أكد معتقدا أن التعبير الفرنسي يوضح قوله أكثر. بالإضافة إلى ذلك كان يحس أنه يهزم عدم قدرتي على الدهشة المتأتي من عدم إيماني وعبثي.

- و ... كيف كانت؟ سألت.

- آية في الجمال -أكد عباس رافعا يديه نحو السماء لدرجة أن جلابه كان يبدو أحيانا وكأنه يلمس السماء.

شككت خلال ثوان في الجدوى من استمرار هذا الحديث، كنت أعلم أن عباسا لا يحاول خداعي، بل بالعكس كان يجد متعة لكونه مرشدي ودليلي هنا في المغرب. بسذاجة، ولكن أيضا ببذاءة قلت:

- ماذا وقع لها بعد ذلك؟ هل هناك حقائق؟

بدا أن السؤال حيره، فأحسست أنني أبدت قلة اعتبارا تجاهه. كان ساخطا ولكن بالخصوص خائبا؛ فإذا حكمنا على التلميذ فقد كان معلما سيئا.

-أدلة؟ هي الآن في الدار البيضاء وهناك توجد أدلتها -قال متحديا، في الوقت الذي لم تستطع قسماته المتجهمة إخفاء غضبه. دار حول خطاه وأشار إلى الرمل كمن يشير إلى طريق بادية بالنسبة إليه فقط، وأشار علي أن ننصرف.

عندما عبرنا الصخيرات وقبل أن نتجه جهة الجنوب، اعتقد عباس أن الوقت كان متأخرا، ونبهني أن الشمس ستجعل سفرنا شاقا وأنه إذا كنت أرغب في الذهاب إلى الدار البيضاء فقد كان علي أن أخبره. لقد أصبحت إنسانا عديم المسؤولية لا أعلن مسبقا عن رغباتي المتقلبة. وفي النهاية، لماذا يجب أن نذهب إلى الدار البيضاء. لم أرتكب خطأ طرق هذا الموضوع ثانية.

سعداء هم أولئك الذين يؤمنون دون رؤية، فكرت، مملكة الوهم تستمر فيهم و تدوم. لم لا؟ هكذا، ومتناسيا غايتنا الأولى، قلت له:
-معكم الحق.

أمر عباس بالعودة و أظهر ابتسامة عريضة ليقول بعدها:

- أدعوكم إلى المقهى المغربي Café Maure وبعدها ستتناولون طبقا من سمك المصب المقلي، لم يسبق لكم أن ذقتم طعاما مماثلا له – أكد عباس وهو يربت على كتفي بتسامح لا يخفي رضاه قبل أن يبدأ حكايات جديدة.

حين عدنا بدت الرباط حفية.

حفلة الشاي المغربي

داخل حميمة المنازل المغربية المحمية بأبوابها السميقة، لا يمكن لأي زيارة أن تنتهي دون تذوق نقيع النعناع التقليدي .
عندما دخلت الدار قدموا إلي اللبن والتمر كترحاب رمزي. كانت أعمدة الفناء مكسوة بزليج لامع، ومن حول الفناء تنتظم غرف عالية رحبة بنوافذ كبيرة و أبواب هلالية. السلم، المزين كذلك، يفضي إلى طابق علوي منفتح كله على الداخل بممرات ضيقة. كان المنزل في الواقع يتكون من قاعات مفتوحة، مضاجع وحديقة.

وبطلب غريب من عباس، كانت العائلة ترتدي أجمل الملابس لإظهار الاحترام و العناية. وكانت جدران الصالون الذي نتواجد به تلمع مكسوة بفسيفساء زرقاء وبيضاء بها رسومات متداخلة، وكان هناك أيضا شباك بإطار خشبي من الأرز المنقوش، يخلق أشكالاً متعددة مع زجاج النافذة الكبيرة الملون . في وسط الصالة توجد أريكة من الحرير تجعل المكان أكثر راحة بفضل و ساداتها الكثيرة.

لإفتتاح حفلة الشاي ملئ الخزان الفضي الموضوع على تنور مطرق آية في الصنعة بماء فاتر. بعد ذلك أفرغ وملئ من جديد بماء بارد، أضيف إليه النعناع و السكر بسخاء. بعد ذلك انتظرنا أن يصبح جاهزا.

فوق المائدة الصغيرة المتكئة على ثلاث أرجل خشبية، تستريح صينية مصقولة عليها كؤوس حمراء و خضراء مزينة بخيوط معدنية. لما

أصبح النقع جاهزا أضيفت إليه من جديد المقومات وصب جزء منه في إبريق الشاي الغضي و الباقي أعيد إلى المغلاة. وبعد ذلك صب الشاي من علو مرتفع في تلك الكؤوس الزاهية.

مُلئ الإبريق مرة ثانية بماء فاتر. الطيب، ونظرا لصغر سنه استطاع احتساء الكأس الثانية أيضا، لأن الشاي كان خفيفا كما يحبه الأطفال و الشيوخ.

كانت النساء الشابات اللواتي كن في مقتبل العمر يرتدين جلابيب راقية بألوان باذخة. وكانت فاطمة، البنت البكر، تبدي في ذلك العرض، مهارة استثنائية. كانت ترتدي قفطانا سلاويا تقليديا بظفيرة، وكان القميص من حرير بلون اليشم عليه زهور مطرزة باليد وفوقه ديباج راحي يبرز مفاتها. كانت لها دراية لا تظهر إلا في الوقت المناسب . شعرها الطويل الكستنائي يسقط على كتفيها، محيطا بمحياها في تناغم مع الحاجبين الهلاليين. و الكحل الذي يزين الرموش و الجفنين، يجعل العينين أكثر اتساعا والوجه أكثر بياضا.

قدمت قطع صغيرة من الحلوى، لذيدة وزكية، ولكن فكري كان يتابع حركات تلك الفتاة ببسمتها المحتشمة وطريقتها الأنيقة، نبرتها المفتوحة والشهية حين تتكلم لغة الكفار.

حين بحثت عن موضوع لإخفاء ارتباكها، تكلمت عن إعجابي بالصياغة البربرية القديمة. فشرحت لي كيف أن الحلوي يتوارث من جيل لآخر، وأن الفضة كانت زينة الأرياف و الذهب امتياز المدن. كانت هاتان المادتان تستعملان لصياغة المشابك، الأقراط المثثة، الأكاليل والأحزمة،

كانت تبرز الصدر المزين بالفضة والأحجار الكريمة. تكلمت عن تشابه هذه الحلبي بالحلي البنزطية وعن المنزلة التي يحظى بها العنبر و المرجان. أكدت، حينئذ، أن الشكل الخارجي، الملابس، مسكن الإنسان، هي الأشياء الأكثر قربا إلى الروح.

لم أستطع نسيان فاطمة، كنت أعتقد رؤيتها في قدم بربرية محمرة بالحناء، في بطن الراقصة المتموج، في الوجوه المتوارية لنساء آخر، في منعرجات الأزقة، وهي تلتوي صعودا، فتفرض إيقاعا خاصا على النساء اللواتي يلتحفن الحائك، في نعناع أو زهر المقهى المغربي اللذين لا يمكنني تذوقهما ثانية دون أن أتذكرها رغم أن شجرة التين القديمة تعيد ظلها، في تلك الزاوية، حيث يمكنني أن أرى دائما المصب، سلا، الخلود...

جوبا

جوبا II، ابن يوغرطا، ملك بربري، تربي كمواطن روماني تحت حماية سيراز أغوسطينوس CESAR AUGOSTO عاش بجانب النبلاء ازدهار ثقافة استوعبت كل معارف تلك الفترة. فنون وعلوم من إنتاج شعوب أخرى، أقاليم وأمصار كانت تغني ثروات المضيفين. كان الأمير شاهدا في تلك الأيام الفتية على عصر زاهر، عصر استطاع خلاله، في زي الرجال الذي شرفه، أن يكتسب تربية سياسية معقدة.

عين جوبا حاكما على موريطانيا في الوقت المناسب. وبذلك خضعت مناطق أخرى إلى القانون الروماني، مناطق تضم اليوم المغرب و الجزائر. لكن جوبا نجح، اعتلى العرش واتخذ له زوجة: كليوباترة سيليني Cleopatra Selene ابنة ماركوانطونيو وكليوبترة ومع ذلك لم يتأثر بما أصاب والديه. قران الحب بالسلطة لم يخلق له أبدا أية صراعات. حكم بكرامة مطلقة ما يناهز نصف قرن. شجع التجارة والصناعة وربما الفنون أيضا لأنه، وكما هو معروف، كان رجلا مثقفا. كان مختصا في الكتابات القديمة ورحالة لا يتعب، ألف عدة كتب. وأصبحت العائلة الملكية، في أعين الرعية، في مقام الآلهة. ومع ذلك فقد دُبح ابنه طولوميو Tolomeo على يد كاليغولا CALIGULA الذي كان يطمع في العرش. قوض القوانين التي كانت تحكم السير الجيد للأباطورية، والمعاملة الحازمة، الودية والرصينة التي يجب أن يحظى بها الحلفاء.

وليلي، المدينة التي أحبها جوبا كثيرا، احتفظت للأجيال القادمة بأحسن تماثيل ملكها الموقر. تماثل نصفي من البرونز لكاطون CATON القديم، وآخر لغلام مشبوه، غريب، مرمر أسود لانتصار ما... هل العاهل قناع بملامح أبولونية؟ حين شاهدته من الجانب خيل إلي أنني تعرفت على شريف روماني آخر. البربر، بكل تأكيد، لم يروا فيه صورتهم، لم يتماهوا معه. فالشعب لا ينعكس أبدا على وجوه الملوك الخانعة. أنا، حمو بن صالح، معتصم شريف، حفار قبور في شبابي قبل أن أصبح لصا محترسا لأعمال تنتمي إلى مدارس فيدياني Fidias العظيم وبراكسياتيلس Praxiteles العجوز - أعمال اختلسها الرومان و تساير الذوق الأوروبي - استعملت مهارتي هنا وفي أطلال باناسا Banasa، أؤكد ما قلت، والله على ما أقول شهيد.

المرأة

مهداة إلى Eraclio Zepada

بعدها ظللت تائها عدة أيام في حديقة القسبة، استطعت في النهاية أن ألحق المرأة الجميلة التي كانت تترصدني. قبضت بقوة على يديها وأجبرتها أن تخرجني من المتاهة. وصلنا إلى الخارج. حينما دخلنا قاعة المرايا بدأت تتوسلني. مشدوها، لاحظت أن صورتها لا تنعكس على المرأة. استسلمت لرغبة تصفيتها فأصبح جسدها جثة. حينئذ استطعت رؤية انعكاسها، و لكنني اكتشفت ، فزعا، أن الجثة لم تعد بجانبني. على المرأة ظلت فقط صورة ممددة جاسئة. تناولت خنجرا. وقررت أن أعود للبحث عنها.

ذاكرة سلا

ليست هناك معلومات دقيقة عن أصل سلا. البعض يعتقد أن مؤسسها هم الفينيقيون وأن اسمها بالعربية هو سَلا. لكني أتذكر جيدا أنه إبان حكم تميم عطية بن زيري، حاكم شالة و الطالبية، كانت الأحياء الثلاثة، الأكثر قدما، قد أحاطت بالمسجد. وخلال الفترة التي تعرف لدى المسيحيين بالقرون الوسطى، كانت سلا تعرف رواجاً تجارياً مهماً. كانت مشهورة برخامها وبالأقمشة الصوفية، الزرابي، الحرير والعسل . كان يزورها بتواتر الكطالانيون، الإنجليز، الفلامانيون، وتجار جنوة وبيزا. في أيام السلم وإبان أحد المواسم نهبها القشتاليون.

بعد هذه المباغثة حصنا المدينة ووضعنا مخزنا للأسلحة قرب الملاح، الحي اليهودي. وحين كنا نبنى السور كان السلطان يعمل بيديه الكريمتين لترعانا العناية الإلهية. وهكذا أصبحنا، نحن سكان سلا نزاول القرصنة المذرة.

الجهاد ضد المد المسيحي خلال قرنهم السابع عشر كان قد مدنا ببواعث جديدة. فبفضل المشاركة الفعالة للمسلمين المطرودين نشأت، في سلا و الرباط، الجمهورية المستقلة للعدوتين، لنصرة دين الله وكساد تجارة الإسبان. القرصنة الأندلسيون، بمساعدة المرتدين، طوقوا ساحل إيبيريا الأطلسي. بعد ذلك، وانطلاقاً من نقط مختلفة من بلاد البربر

، تجرأت مراكب خفيفة ، شرعية أو بالمجاديف، اقتنيت من الأراضي المنخفضة أو من صنع بحارة مسلمين انطلاقاً من مبادئ سيمون دي سانسر Simón de danser انطلقت تلك المراكب، وكان أبي معهم، حتى مياه الأرض الجديدة Terra nova وإيسلاندة، وفي طريقهم هاجموا، أخفاء بارعين، مدناً ساحلية إسبانية، فرنسية وإنجليزية. بفضل الغنائم والأسرى جمعنا ثروة كبيرة وصعدنا غيظ الأوربيين.

الفارس غزيلي Razilly حاصر من جهته، وباسم ملك فرنسا، مصب وميناء الرباط وسلا ولكن أحوال الجو لم تحالفه :أرغم على التراجع كما أرغم على ذلك الأسطول الإنجليزي الذي كرر نفس الحصار. ومع ذلك أخذت جمهورية القراصنة تتلاشى ببطء تحت حكم السلاطين و القوى الأوروبية.

اليوم، عند المصب، وفي الهامش الشمالي لأبي رقرق، أصبحت سلا عبارة عن منطقة ساحلية محاطة بالبساتين تنحدر ببطء في اتجاه المحيط. ورغم أنها محصنة بأسوار بيضاء يمكن ولوجها من أبوابها السبعة .عندما ألج باب بوحاجة أصل إلى القيسارية المغطاة:ينذهل بصري لبريق الأقمشة المتعددة قبل أن يسيخ في اتجاه حركة الأزقة التي ألقت تجوال أمي.

سوق سيدي مرزوق لازال على حاله. هنا كبابو الحرير، وهناك الطرازون والصائغون اليهود. بعد ذلك أعبر فندق السكر- الذي كان في ما مضى مدرسة للطب ومستشفى، محكمة فمأوى لنساء جميلات

كان الولي الصالح سيدي موسى الدكالي يصلحهن بتصوفه، و هو اليوم عبارة عن مخزن للصوف و الزيوت لازالت نوازل إفريزه شفافة.

أتقدم إلى الأمام عبر زنقة الجامع الكبير، أقترّب من هذا الأخير وأنا أتملّى لون مئذنته الأمغر. في ورشات صغيرة جدا، لا أحد من الخياطين، الذين يخطون فساتين تليق بنساء راقيات، يغفل إبرته من فرط الجلبة التي يحدثها ترتيل الصغار للقرآن في الكتاب المجاور.

حينما أعود من نفس الزقاق أجد مدرستي القديمة، مدرسة علوم الدين التي بناها أبو الحسن المريني. أصدع ومن هناك أستحسن المسجد المجاور ومآثر سلا، النهر، وفي البعيد، الرباط. رداء من السطوح البيض و البنايات المكعبة بين المآذن تموه الأزقة الملتوية و الوعرة. في الجهة الغربية أرى الأحياء الغنية، بينما تتناسل في الجهة الشرقية الأحياء الشعبية. مساجد عديدة، زوايا وأضرحة، تؤكد صيت سلا الحضاري وطابعها العلمي والديني.

أتجه يسارا عبر زقاق يفصل المدرسة عن المسجد، أمر أمام زاوية سيدي أحمد التيجاني: عائلتي كانت دائما من أتباعها . بعد الباب الثاني أتذكر أيضا زنقة الطالبة الضيقة التي تقودنا بأقواسها إلى معبد آخر: زاوية سيدي أحمد الطالب. أعود حتى ضريح سيدي عبد الله بن حسون المتعدد الألوان، وتحت قوس يفغل الزقاق بقبتيه ذواتي الأضلع الثمانية، يبدو ولي وشفيع سلا، زيارته ضرورية لكل من ينوي السفر... لقد كنت مخلصا له دائما نظرا لمهنتي.

خلال موسم الشموع العظيم، الشموع الكبيرة و الملونة التي تثير الضريح، يصبح هذا الأخير مكانا للاحتفال بذكرى عيد المولد النبوي. في اتجاه السور الغربي المطل على الشاطئ والمقبرة الخارجية، غير بعيد عن ضريح سيدي أحمد بن عاشر - نحوي، شاعر و صوفي قديم، صاحب كرامات في شفاء المجانين - أجد المصلى حيث تقام الصلاة، تحت قبة السماء، وحيث تجتمع ساكنة سلا لحضور الحفلات الدينية. في الداخل المحصن يوجد منزل مهجور قرب باب مالكة يحمي الأرواح التي لا تسكن الفوانيس السحرية. أصل إلى سوق الغزل، المكتظ صباحا ببائعات الصوف المغزول و الذي يصبح الآن، بعد العصر، سوقا يصم الآذان تباع فيه الخردة و حيث أمر دون أن يشعر بي أحد. مرة أخرى في القيسارية، خفاف وحصير في كل مكان. من هناك أتابع السير متعبا حتى الباب المريني، باب مريسة، أجمل أبواب سلا. تحت هذه البوابة المزخرفة بأشكال نباتية و البرجين المستطيلين اللذين يجثوان على جناحيها ينسج صناع السلال السعادي . يراقبونني . أنتبه للأمر. كم يضايق هذا الحنين.

أنا الذي كنت هنا في مرحلة الازدهار، أعود اليوم مع الأشباح لأتذكر الماضي، لأحتفل به وأغنيه... أبكي معك، سلا، فوق بلاطتك الدافئة. سأغتصب أسرارك من جديد كالدخلاء وسأنتظر المجد ثانية، نعم، سلا، أنتظر... أنتظر...

ضريح المجانين

سيدي أحمد بن عاشر، حسب ما أخبرني عباس، له القدرة على إعادة الرشد لمن يقضي ليلة تحت قبته. بالقرب من حصون مدينة سلا ومتقاطعا غربا مع مدافن المسلمين يوجد هذا المنسك الذي يشفي الجنون. بمحاذاته ألاقي كل مساء شيئا بحارا يحضر شبكته بإتقان. يعلم أنني أريد رؤية معجزات.

حين أمر أمام القبة أحاول رؤية الداخل. وإذا ما وارتب جفني بفعل حمرة الشفق أعتقد رؤية حشد من المجانين بين كل رفة جفن. جماعة تمد أيديها وأخرى تتشابك في إحدى الزوايا صامته كمن ينتظر الموت، و الباقي يضحك للهباء و يتحاور مع الأشباح. لكن المعجزة لم تتحقق. أعتقد أنها تتحقق فقط إبان أحد المواسم، احتفال يقام لتخليد ذكرى أحد الأولياء الصالحين، كهذا المدافع عن القضايا الميؤوس منها وواهب الحصافة .

اليوم، عندما اعتقد الصياد العجوز أن الوقت قد حان ليكلمني قال دون أن يجيب على الأسئلة: إذا كنتم تؤمنون أنهم سيشفون، فإنهم سيشفون... في الحقيقة لا يجب أن تعتقدوا شيئا آخر. من يؤكد هذا؟ من ينفيه؟

شكرا لك إلهي على هذا الجنون الذي باركتني به.

بائعو الماء

لن ألقى أبدا رجالا بذلك المظهر وبتلك الأناقة كسقائي المملكة الشريفة. أشكالهم الزاهية بلباسهم البراق تبدو من بعيد. الزي، ذو الحمرة المشتعلة، يبرز الأنبيات النحاسية العالقة بالجسد بسلاسل صفراء. وعلى الخاصة يثبت كيس مزين بصفائح معدنية متصل بالحزام الجلدي المتقن الصنع. الظهر تحيط به قربة من جلد الماعز تحفظ السائل الذي يسكب من القرن الذهبي ويصب من عل على شكل خيوط دقيقة منعشة في الأنبيات النقية، اللامعة والكثيرة التي توشح الصدر كأوسمة محارب. سلسلة أخرى طويلة لامعة مرتبطة بالعنق تنتهي بناقوس. ينتعل السقاؤون خفافا جلدية، ربلاتهم، القوية الغليظة، عاريات كأذرعهم. تنقلاتهم وحركاتهم تتم عن حس أميري. بشرتهم لها لون الزيتون الجاف اللامع، بعض التجاعيد تعلقو المحيا كتنازل للزمن. الرأس مغطاة بعمامة بيضاء انضفرت بخيوط صوفية سوداء. اللحي، المزنية بعناية، تكمل المشهد.

عند رؤيتهم يصبح حضورهم معجزة وبشارة . تحت ظلال السنط، عند مدخل شالة، أمام أبواب المدينة القديمة أو بعد قيلولة صيفية، تجدهم دائما هناك بيسمتهم السخية وبزيهم الأرجواني المذهب كملائكة الماء والحياة.

المدينتان التوأمتان

تفصل المدن التوأم دائما أوردة نهريّة، دلتات، مصبات أو أذرع بحرية عميقة، وعبر السنين يمكن أن تحدث العداوة فتبحث كل مدينة عن مكونات لإظهار أنها أكثر قدما أو أن لها أصلا مقدسا، أو أن واحدة كانت أصل الأخرى.

بالفعل، فبناء هذه المدن التوأم يأخذ أشكالا وأساليب متعددة. في بعض الأحيان يحدث انشطار فتظهر، عندما نعبّر النهر أو البحر الذي يفصل بين المنطقتين، ساكنة والتي مع مرور القرون تنسى بداياتها. في حالات عديدة، تزدهر المدينة الجديدة أكثر من الأولى الشئ الذي يجعل علماء التاريخ و المؤرخين الرسميين في حيرة من أمرهم. وفي حالات أخرى تكون الضفتان حاجزا بين الفقراء و الأغنياء، في هذه الحالة تكون النتيجة: مدينتان مختلفتان.

وفي حالات غريبة تخلق المدينتان في نفس الوقت، لأن زعمائها لم يتوصلوا إلى اتفاق، أو لأن هناك عداوة بين القبيلتين، أو بين أخوين قررا العيش في ضفتين متواجهتين. يحدث أيضا أن يكون الإزدهار بالتناوب بين المدينتين الشئ الذي يجعل تحديد الأقدمية شيئا لا يطاق.

هذه الصعوبة كانت وراء تكوين أشخاص كرسوا حياتهم من أجل ذلك:
البحث في أعمار المدن.

ولكن أكبر معضلة في هذه الظروف هي أن شهرة إحداهما تغيّب في ذاكرة الرحالة وجود الأخرى. فيبدو هذا غير مقبول ، بالطبع، بالنسبة للجيران الأقل حظا. ومع ذلك فالأشياء تحدث على هذا المنوال. هذا ما وقع مثلا لألمادا Almada ، نيطوري Niteroi وأسكودار USKUDAR. بودابست Buda Pest تعاهدتا على الاندماج منذ زمن بعيد. حينما أصبحت الرباط تضم القصة وما كان يعرف بسلا الجديدة، أصبحت سلا الحالية، و التي كانت تسمى أيضا سلا القديمة، في حالة صعوبة. لهذا السبب، اتخذت مرة إجراءات سرية كان الهدف منها حماية المدينة من ذاكرة الرحالة السيئة. بهذا الشكل يمكن لعديمي الذمة والسذج الذين يرتادون أزقتها ألا يخرجوا منها أبدا. لقد صادفت شخصا بجانب في سن التسعين، مائة وربما مائة وسبعة وسبعين سنة، بأسمال رثة وجائعين يهيمون كالمنبوذيين في السوق الذي أصبح مرتعا للكثير منهم. الحقيقة هي أنه عندما يلج الأجنبي أزقة المدينة القديمة بمتاهاتها الضيقة و المعقدة يواجه مغامرة فريدة من نوعها، حيث يجد نفسه يتجول في دروب صغيرة صممت من أجل البشر و الدواب. والأدهى من ذلك أن بعضها مغطى دائما بالحصير الذي لا يتسرب منه إلا ضوء خفيف ناعم لحماية السابلة من قيظ الحر و من النور الوهاج، الشئ الذي يجعلهم يضلون بسهولة عن وجهتهم. بعض الأجانب، وبخاصة القادمين الجدد منهم، يسهل التعرف عليهم: أغلبهم، و لعورهم

الإرادي، يتشبثون بعادة غريبة، عادة تأمل العالم من خلال ثقب الآلة التي تتدلى من أعناقهم. لكن الوضعية تزداد تعقدا نظرا لسببين. يرفضون، من جهة، الموت لأنهم لم يستطيعوا رغم حالة الإستعجال، التعرف على مكان المقبرة، ولكونهم ينظرون إلى الأشياء من خلال عاداتهم لا يدركون أن ذلك المرج المزروع بنصب مجهولة و الموضوعه في نفس الإتجاه هو المأوى الأخير لأغنياء وفقراء هذه البلدة، يرقدون هكذا مجتمعين، دون فوارق أو امتيازات. من جهة أخرى، مجموعة كبيرة منهم، بدون قدرة على التمييز كما هو واضح، لم تجد يدا حنونا تقودها إلى ضريح سيدي أحمد بن عاشر، وإذا كان التيه ظرفيا فهم غير مستعدين في لحظات رشدهم للمعجزة.

كانت الأمور على هذا المنوال بالنسبة لسكان سلا حتى أصبحت الوضعية لا تطاق. هكذا وباندفاعه يائسة، اقترح أحدهم انتظار يوم الجمعة، اليوم المقدس الذي تتجه فيه كل الأفكار للباري تعالى، و حيث أن عدم ارتداء الجلباب الأبيض حول المساجد و المصلات المطلة على البحر سيشي بالدخلاء العجزة و الحمقى، لأن كل سكان سلا يحافظون بغيره عن تقاليدهم وعلى لباسهم الديني. كانت الخطة هي إبعاد هؤلاء الدخلاء بإرغامهم على عبور الجسر في اتجاه الرباط.

سكان الرباط، الذين ما أن علموا بالخطة السلاوية، حتى وضعوا حراسا، ليلا ونهارا، على طول الضفة وبجوار الجسر. سنوات بعد ذلك، أقلع سكان سلا عن هذه الفكرة لأنها مستحيلة التحقق. وفي تاريخ لاحق اقترح تطبيق ما كان مقرا باقتياد هذه القافلة الغريبة حتى غابة

معمورة. لكن شيخا معمرا ذكر الناس بخطر مواجهة الخيارم، وبما أن آخر واحد من هذه الحيوانات قد أريد منذ عقود بمنطقة أوطاط الحاج، لا أحد كان بمستطاعه تذكر هذه الفصيلة من الحيوانات. ولأنهم يجهلون أي نوع جهنمي من الكائنات سيواجهونه، اعتبروا المسألة في غاية الجرأة وخطيرة أكثر من اللازم.

بعد ذلك بسنوات راجت إشاعة مفادها أنه يتم إعداد قوارب كبيرة لإبعاد التائهن وتركهم على الضفة. فتدفق المياه من جهة و القدر من جهة ثانية سيتكفلان بدفعهم عبر البحر حتى أوربا. لكن مجموعة كبيرة من سكان الرباط حاولت إحضار العملية، فانتصبوا من جديد حول النهر وضاعفوا المراقبة من كل جهة، خوفا من أن تكون رياح معاكسة أوتيارات بحرية قوية وراء جنوح مراكب المجانين على ضفتهم. فأصبحت القضية خطيرة لدرجة أن أرواح القراصنة التي تظهر عادة في الليل مع رذاذ المرطم الضبابي، وبعد صلاة العشاء، احتجت بقوة خوفا من أن تصبح فضائها السحرية مكتسحة. مستنكرين الجلبة التي تسمع ليلا، تنازل سكان سلا في الأخير عن خطتهم.

أخبرني الصياد الذي يحوم حول الضريح عن حملة أخرى جديدة بالإهتمام. لقد كان الهدف منها هو ترحيل تلك الجماعة في ليل لائل حتى تخوم القنيطرة، على أمل أن تكون ساكنتها تجهل أصل المغرر بهم، فتقودهم جهة الشمال؛ على الأرجح إلى طنجة. لكن على ما يبدو كانت ستظهر، بدون شك، مشكلة أكثر تعقيدا. فأمام أمواج جبل طارق

الغاية كانت الغاية هي تسهيل عبور هذه الشردمة من المجانيين إلى
الجهة الأخرى، وبذلك كان سيشعل فتيل حرب صليبية جديدة.
في تلك الأثناء، علمت من مصدر موثوق أن مجلس المدينة يزمع تقنين
دخول الزوار إلى فضاءاتهم الحميمة بدون رفقة مناسبة. ومع ذلك فسكان
سلا لم يعودوا يرغبون في أن يتذكرهم أحد.

التجارة بالمدينة العتيقة

الانحدار عبر زنقة القناصلة معناه ولوج الحركة التجارية لشرايين مدينة الرباط القديمة. دروب ملتوية تفضي إليها، تجارها منهمكون في تعليق وعرض سلعهم التي توضع أمام أعين المارة بدون حاجز أو واجهات زجاجية، طوفان من المواد المختلفة: سلع جلدية وعاديات تتنافس في صراع صعب من أجل المواقع مع محلات بيع الزرابي المتقنة الصنع و الصنعة.النساء والرجال يتجولون في طوابير لا تنتهي ولا تلتقي، تحت الحر الذي تطفه ظلال شرفات بعض الفنادق. قليلا إلى الأمام توجد القيسارية، خلية نحل، بألوان أقمشتها الغربية التي تتدلى من السقوف. سوق السباط أو الجلد ينتعش داخل روائحه.سوق آخر للحدادين والصباعين يوجد أمامه، قبل دكاكين الصياغة الرائعة.يفتر الحماس فقط بالقرب من الجامع الكبير. أما زنقة السويقة، أحد المسالك المهمة التي توازي السوق، تقدم عرضا من الألوان و السخاء و الدعوات الملحة. بين المنازل العتيقة تتعدد العروض وتصبح الأزقة امتدادا لكل الدكاكين وللسوق المركزي.أزيز عنيد يحوم حول العسل. أكوام من التين والتمر في متناول اليد. الصناعة التقليدية،امتداد للحياة، عرض للحاجيات اليومية حيث لا مكان للأشياء التي لا وظيفة لها، لأن عمل الإنسان مرتبط بشكل عضوي بوجوده اليومي. هنا حدادة وهناك دباغة،منصذات، محفظات، في الجهة الأمامية، مدابغ تغلي بكبب

الصوف، فضة منقرة، أواني نحاسية، تماثيل خزفية، زينة الحفلات الكبيرة، خفاف يحملونك حتى ورشات الخياطين الصامتين.

في السوق، بين الدعوة إلى تذوق القريشات - فطائر بالعسل، المربى و الجلجلان - كعب الغزال، بريوات و الثمر المحشو باللوز المحمص وماء الزهر، تنتظر مفاجآت عديدة عند المسمكة. أسماك، قشريات ورخويات ترقد على أسرة من الثلج و الملح. تلال من البرتقال تبرز بين صناديق الفاكهة الطازجة و العديدة. وراء حزم النعناع الكبيرة، بعيدا عن البهارات و الحبوب، بين أكياس مليئة بالحمص، تتدلى الشحوم و اللحوم الحمراء من العقافات أمام النظرة الذاهلة للأكباش المنحورة.

البيع والشراء استمرار لطقوسية المقايضة. المساومة شكل من أشكال العدل التجاري، توازن بين قيمة الاستعمال وقيمة التبادل، إنصاف للحرفي وللمشتري. التبادل الصحيح يستغني عما هو زائد. ليس هناك ربما إعلان أحسن من نداءات الباعة. لاشئ يقتنى إذا لم يكن من الضروريات. الندرة والوفرة، الفصول، الشمس والزمن هي التي تحدد قيمة الأشياء. تسقط بعض النقود في الخرج لكن الإنسان يود فقط أن يحصل على مقابل عمله. بدون زيادة أو نقصان. المتسول فرصة للإحسان. كل رداء صالح ليكون لباسا. بدون زيادة أو نقصان. على كل سلعة مناد. لا الباعة قليلون ولا المشتري غائب. لا ملح زائد ولا زيت أكثر من اللازم. هكذا هي تجارة المدينة العتيقة. هكذا مارسها أسلاف أسلافنا حتى بدايات الزمن. ولا نعناع، أبدا، أكثر مما يمكنك شربه.

المجاهد

تتسلل الأرواح ليلا عبر باب مالكة و في معابد بحرية تفك مرابط السفن، تعد حبال الأشرعة وبلطف يملأ النسيم أشرعة المراكب. يصر الخشب، يخرج الملاحون بين الأموات فتسمع صرخة: بسم الله. ينتصب البحارة في يم من الضباب مع الصلوات الورعة. مؤازرة نساء سلا الجسورات تضمن لهم إبحارا سالما. يجوبون البحار تحت سماوات معادية. سيوفهم وسهامهم تنهال، تصفر وتجلف. وأثناء نهب القرون الخوالي يرفعون غنيمة تطهرها النوارس حين تعلن بحماس عن مقدم الفجر من فوق أبراج الأسوار. قضى الأسكندر سلكيرك ALEXANDRE SELKIRK، المشهور بروبنسون كروزوي Robinson Crusoe ، حسب قول دانييل دوفو Daniel Defoe الجميل، سنوات تعيسة بسلا، سقط أسيرا من جديد وأصبحت حكاية المرايية و البخيلة أسطورة تغذي آمال كل غرقى العالم.

سأذهب مع عروج وخير الدين- الأخوان ذوا اللحية الحمراء - مع البرابرة المرعبين و الهورنا تشيصوص Hornacheros الذين لا يهزمون، غرناطيون وقرطيون، الذين تكاثروا كغينة المرافئ، مع المرتدين المعروفين، معهم سأذهب لأغني تعاسة سلا وأعود كالندي حين يحتاج الفجر مندغما بالماضي الغابر الذي يجعلني سليل دوحه القراصنة. تصبح الكلمات أبياتا أموية، لغة عريقة يتذكرها البحر فقط بفضل حكمته

اللامتناهية. مراكبنا تتلاشى فنرتمي من فوقها. نحن دموع صمغية
تبكي خشب الأرز و عفصيات الأبواب الرائعة، نحن صدأ المسامير
المطرقة، نحن راسمو المجاري المائية الصغيرة على بلاطات الأزقة
الحجرية، نحن آخر شمعة في القراط الذي ينير حياة الزهد، نحن بركة لا
تبارك سوانا، نحن مجاهدو كل الأزمنة، نرقد في سلا، آخر مرفئ ليلى،
حيث يسكن فؤادي.

الحي

مهداة إلى Rubén Boniaz

Nutro

كل ما استطعت الاطلاع عليه حول بن طفيل، فيلسوف من القرن الثاني عشر، يتفق على أنه مارس الطب وترقى في مناصب عدة عند حكام غرناطة، سبتة وطنجة، قبل أن يصبح طبيباً ووزيراً لأبي يعقوب يوسف في مراكش. البطروجي استعان بنظرياته الفلكية. أعلم أيضاً أن منزلته عند أبي يعقوب سهلت مأموريات ابن رشد حيث أدخله إلى البلاط وشجعه على شرح أعمال أرسطو، نظراً لامتعاض السلطان الموحد من الالتباس المفترض لبعض تراجمة أرسطو.

لكن إنجازاته الأكثر قيمة هي رسالة حي بن يقطان وخاصة الرقية الحكيمة التي استطاع بواسطتها إنجاب ابنه الأدبي. من أجل هذا، وحسب ما أسر به لابن رشد لحظات قبل وفاته، استطاع اكتشاف الكلمات السحرية في كتاب غريب كان مخبأً بالأسكندرية أوصله إليه مبعوث سري.

حي بن يقطان، حسب الحكاية، أنجب على ما يبدو بشكل تلقائي، أو ربما من خلال علاقات سرية لإحدى الأميرات التي، بعد ابتهاج مسبق، وضعت في صندوق وقذفت به في ماء البحر. وصل الأمير الغريق إلى ساحل جزيرة حيث أرضعته وربته الطبيعة التي سترافقه خلال طفولته. ترعرع الطفل بشكل متوحش مع الحيوان و النبات، وبفضل ذكائه الفطري وتجاربه الشخصية استطاع فهم الطبيعة بشكل تصاعدي من خلال تزهدته وتأملاته حتى درجة الوجد ورؤية الواحد. خلال تأملاته ظهر له ناسك آخر، أصال، الذي كان يبحث عن الوحدة. علّم هذا الأخير لغته لحي واستغرب لمعرفته التي اكتسبها باستعمال عقله الذي

أوصله إلى درجات روحية عليا كان هو يبحث عنها في الدين. وهكذا قرر
حي أن يعلم الناس فقبل السفر إلى مسقط رأس أصال. وحين رفض
الناس أستاذيته واحتقروه، لاحظ الناسكان عجز العامة على تعلم
التصوف فصرفا النظر عن ذلك الأمر وعادا من حيث أتيا.

وهناك طالت رقية ابن طفيل الشخصية التي كانت حتى ذلك
الحين أدبية فقط. لقد حقق الفيلسوف العجوز مبتغاه قبل وفاته: جسد
العصامي وتواصل من خلال حلم . بهذه الطريقة أصبحت لحي معارف
واسعة عن وجود الكون. من جهة أخرى كان قد استعصى عليه بلوغ
الوحد حين تناول المواد التي أعطاه إياها أصال في أول لقاء بينهما.
والآن، وبعد أن مكث مع الناس واطلع على اهتماماتهم السخيفة،
وبعدما حدس متع المجال الملموس الذي أسر له به الأب الروحي،
أصبح من الصعب عليه ممارسة تأملاته. قانطا من جراء ذلك، لأنه جمع
العلم و الوحدة- فابن طفيل لم يتوسل بأصال - قرر الإبحار في أول
سفينة تصل إلى الجزيرة.

طاف حي في بلاد الشرق الكثيرة حيث الطبيعة تلهب العواطف،
فاكتشف السبل التي توصل إلى حالات أخرى من النشوة: إشراقات
الحواس. بل أكثر من ذلك، لأن بن طفيل منحه سر التجسد الأدبي، بحيث
يكفيه أن يكتب قصته من جديد بطقوسية مناسبة لكي يستمر عبر
الزمن.

رأيته البارحة شامخا، قويا. أعلن عن حضوره في الأزقة و
الأسواق بضجة هي خليط من الدهشة و الرهبة لم يستطع الناس

فهمها. تلازمه امرأة بجمال لا يوصف . إنها أبسال، موضوع تلك القصيدة الفارسية الرمزية، و التي أعطاها حي، بدوره، الحياة بكل الوسائل وبميله إلى الملذات. المعارف التي راكمها خلال كل هذه القرون وسلطاته الرهيبه قادتة إلى مغامرات لا متناهية. في لحظة من لحظات حياته السرمدية استغل قصته لنيل بعض الإمتيازات. فبعدها ساعد بلطارغريثان Baltasar Gracián على تحرير الفصول الأولى من معلمته، رأى أنه من المناسب التفاهم مع دانييل ديفو Daniel Defoe لكتابة ملحمة شهيرة. كما استطاع جان جاك روسو Jacques Rousseau . J أن يشركه بشكل وجيه في كتابة إميل Emile، واتفق معه الناشر على أن يصرف له مبالغ في لاهاي بشكل سري. ولنفس الغاية استقبله إغناسي كراسيكي Ignacy Krasiri في إطار من الكتمان لإنجاز مغامرات ميكواطاي دوسويادسينكي Mikoatj DosWiadczyнки ولكن لاشئ مع ذلك يضاھي تحالفه مع إدغارريس بيروس Edgar Rice Barroughs.

وأنا الآن هنا، حين تتسم لي أبسال . يقف هو ويتقدم نحوي، بيتسم أيضا بشكل غامض باسطا هيئته الرفيعة. تعتريني قشعريرة ولكن يجب أن أتشجع، فالتشجع عربون النجاح، لن أتردد. هو رجل ثقة، محترف وكتوم. لكن نقض العهد يمكن أن يكون مميتا. عينا أبسال تغيباني. أرتعش حين ألمس يد حي العريقة. يسلمني بطاقته: جودان وشركائه. مستشارون في الطباعة و النشر وكتابة الحكايات.

من المشور

حين تغيب الشمس تعيش الرباط داخل حلم، حيطانها البيض
تفتح عيوناً سبجية بمدافعها التي تسند سقوط اللباب. أربع مائة سارية
تنصب أمام صومعة نحاسية مطرزة تراقب أسرار السطوح.
من خلال رطوبة الريح البحرية ألمح صعود بواخر حلزونية تمخر
حتى أرخبيل من السحب. تنعزل الحياة النابضة خلف حدائق يفتح فيها
الرمان قلبه لليل ساخن. كالكتب المجهولة النسب كل شئ يشرف
ويعظم مشيديها القدماء. في المشور، مقر القصر الملكي، تخطف بصرك
السقوف الزمردية تحت تلالئ الحباحب الذي ينير دوائر بلورية. أمام
الأقواس ترن الساحة الكبيرة بحوافر عديدة، إنهم الحرس فوق بردعات
سحرية تجعل الفرس و الفارس لا مرئيين للغرباء و الكفار. باطيات في
علو جمل تتلون تحت القمر. صوامع كثيرة ترتفع لنصرة الله، الرحمن
الرحيم، إله هذه الربوع بدون منازع. تخرج الأرواح الطيبة من نوافذ كعقد
قوطي من الياقوت الأحمر، تتسلل عبر الأقمشة والأنسجة الشفافة
حتى تصل إلى الأزقة، وهناك تجتمع بأرواح أخرى نابغة من الزرابي
الهندسية والأثواب الحريرية التي لازالت تنتظر مهارة الصانع، من الحلبي
القديمة المحفوظة بغيره داخل صناديق عائلية، من قوارير تحفظ عطر
الورد الذي يستعمل للترحيب ويرش على الأحباب، من الفساتين

الملبسة بالفضة التي تمثل كنزا ثمينا بالنسبة لكل عروس جديدة ،من الأرائك التي استراحت عليها أجيال من الكواعب الشابات العفيفات، يلتقون كلهم في المدينة العتيقة، في القصبة وفي الأسواق، عند أبواب المساجد، في المحلات التجارية، في المخازن والأرصعة.

حياد الشجعان الذين استشهدوا من أجل المدينة تستحم بحب سريع على شاطئ الأطلسي فتغزوه. كمقاطع من نفس القصيدة تطفح الأحياء بشكل لا يغتفر، لتنتظم في الذكرى التي هي شكل من أشكال الغرابة.

على صهوة يعسوب عملاق ينزل إلى الساحات الكبرى أقوم بجولة ليلية لكي أتلصص عبر النوافذ، من تحت الأفاريز و الحنيات القوطية، في حدائق معلقة وراء حواجز حديدية رمحية، في أروقة وبراميل الصباغين القزحية. وعبر الطريق المحاذي لسور الأندلسيين، الذي يصبح في منتصف الليل ذهابا مصمتا، أصل إلى النهر وهناك أقترب من مركب تجره هلاميات بحرية و أتتبع مسار السمك الأزرق حتى أصل إلى المصب حيث سفن القراصنة ملأى بالأحجار الكريمة و العبيد، بالحريير و الدمقس و الحلبي الثمينة. في المكان الذي يلتقي فيه المصب بالبحر، على الضفة، يوجد رجل يتلع النار و الزجاج و الماء الغائر، يدعو إلى قراءة الطالع. حين تعود الجياد من حمامها الليلي تسمح بأن تمتطى في صمت يقع على الصدر كجشوة. صمت يكسره صهيلها وهي

ترتدي دخان مناخيرها. هكذا تعلن عن حضورها فتكون سحباً، قطيعاً من الخرفان سيطفو في الصباح الموالي في اتجاه المحيط.

كل ليلة تشيد فوق الرباط مدينة أخرى برغبات فردية ونبوءات قديمة. لاشئ ينكر الحقيقة لأنها تسكن أرواح قاطنيها. الأرواح الشريرة التي تستوطن المراحيض و البالوعات تستسلم في صراع غير متكافئ، لكي تكون استراحة الرثة والمنتسولين طيبة كاستراحة الموتى. قبل أن تتأهب البوابات للتجارة وللرواج اليومي تختفي مطيتي تحت إفريز أحد السطوح. وعندما تنتبه الحباحب المفرج عنها لطلوع فجر جديد ستطوف الحقول مع صدح أول شحورور. برذعات سحرية وفرسان يستريحون في غرف القصر السرية والأحجار الكريمة ستغير مؤقتاً مادتها، لأن لا حلم يستطيع مقاومة حكم الخيال، فأحصنة البحر يجب أن تعود إلى أسرتها الصخرية و اليعاسيب التي أصبحت في حجم عيون البشر ستندهش من عمق صفاء الماء في منتصف نهار الناعورات. أعرف أنني أستيقظ حين أسمع أولى صلوات المسلمين. أعلم أنني أستيقظ بعيداً عن ساحة السلاح السلطانية.

شالة

حينما عين المرينيون أطلال سلا، المستعمرة الرومانية، كانت شمس موريطانيا وروما الإمبراطورية قد أفلت. بعدما حاربوا في سبيل نصره دين سيد الكون، شيدوا تحت حكم أبي يوسف يعقوب، مؤسس الدولة المرينية، مدينة للأموات، حيث دفن زوجته الحبيبة وأوصى بأن يدفن بجانبها، فحافظت ذريته على نفس التقليد. كما شيد أبو الحسن زاوية وأحاط المنخفض بأسوار تفتح جهة الغرب من خلال بوابة عظيمة. أسوار ضاربة إلى الحمرة بمناراتها وبابها الجليل الذي تعلوه كتابة منقوشة تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

".

الأبراج التي تحرس الباب لها شكل نادر. قاعدتها النصف مثمانية تتسع في الوسط بفضل أجنحة وأفاريز بنوازل، بعد ذلك تأخذ شكلا مربعا على مستوى القمة المكلفة بمتاريس هرمية. الكوة تفتح تحت قوس منكسر غليظ، ضيق ومنكسر يكتسب رشاقة وأبعادا متوازنة. عندما أتجاوز العتبة أكتشف، فوق المدرج المظموور بين أشجار التين و المقر، وادي أبي رقرق. بعيدا عن المدرج تظهر منذنة فوق السور الذي يحيط بالحوض. عدة حفريات قريبة تجعل أطلال شالة الرومانية بادية، كنشاز في هذا الحرم الإسلامي.

فوق الأكمة ترسم قباب عديدة بين أشجار الزيتون العتيقة .حين أصبح أمام أسوار المدفن المريني تقودني بوابة حتى مسجد السلطان الذي اختار هذا الفضاء للصلاة والاستراحة الأبدية. ثلاثة أروقة متوازية مع الجدار الموالي للقبلة تكون هذا الحرم. بالقرب من الصهريج الذي تغذيه عين تنتصب مئذنة صغيرة زينت باعتدال. وراء المسجد يستريح إلى الأبد جثمان أبي الحسن وزوجته شمس الضحى: الحرة الطاهرة الورعة... فراش من الطحلب يحفظ هذه المسيحية التي أسلمت. بني المصلى الجنائزي بأحجار منحوتة جميلة جمعت بالرصاص. الحائط الجنوبي زين بعناية، و خاصة واجهته الخارجية. تأمل من الخارج الحنيات بأقواسها العمياء وزخرفاتها التي نحتت على عمق كان مذهبها فوق شريطين من الخط العربي، واحد كوفي والآخر نسخي أو أندلسي.

قررت العناية الإلهية أن يصبح كل زنديق رغب في نهب هذا الحرم حجرا يطمر تحت أنقاض القصر. لقد سيطرت أسطورة مولاي يعقوب، السلطان الأسود، على قبر أبي الحسن الذي كان يتغالط معه أحيانا. فهو يحرس هذه الثروات ويسير حاشية من الأرواح الطيبة و الشريرة التي تحاصر الربوة. ابنته، للا شالة، ترقد بجوار شمس الضحى.

أشجار البرتقال بحديقتها التي تتخلل المدافن، توطر المدخل الذي يؤدي إلى الميضاة، التي توجد وراءها زاوية أبي الحسن التي لا تسعفنا بقاياها لاستحضار بهائها الغابر. في الوسط يوجد صهريج لازالت أحواض منابعه قائمة، كل هذا وسط رواق بأعمدة رخامية بيضاء ممشوقة كانت تنتظم أمامها غرف الزهاد. في العمق يوجد المحراب الذي يعبره الممر

النصف دائري. مئذنة كبيرة تعرض على واجهاتها أقواسا خشبية ،عقدا من الخزف المطلبي وفانوسا مزينا بالفسيفساء.

حين نخرج جهة العين لا يمكن إلا أن نلاحظ ضريحي سيدي يحيى بنيونس وسيدي عامرالمساوي، سيد الرماة.بين الخيزران والحدور يبرز المسجد المتداعي :أشجار سامقة ثقت سقوفه. يتكون الصهريج من سبعة أحواض يسكنها الأنقليس، ملكته ضخمة، شعرها طويل وعيناها ذهبيتان.الماء و المكان مقدسان لحماية هذه الكائنات. كل من سولت له نفسه إذائها أو شك في قدراتها الخارقة سيكون عرضة لآلام حادة. تمنح الصحة والعافية لمن يقدم العطايا و القرابين: طقوس قديمة بين مدافن وأطلال ...

تحت سماء صافية، بين الصخور والأعشاب الطافحة تتداعي القرون كالعزلة على أسوار صدئة مبقعة. إنها أطلال الصمت الذي يراقب بين الظلال و عطر الزهر، تحت طرة الأشجار و الرونق المتلف لحديقة مهجورة. مساجد، محاريب، أضرحة وأروقة توسع مملكة اللقالق المتوارثة. في الأضرحة والمآذن تنام الطيور تحت شمس قاتلة تنسحب بين ريشها.

أنتهي متعة الحياة هنا في شالة؟يدور الزمان وكلمات السلاطين العظماء لازالت تبحث عن مستراح. تخرج شمس الضحى من بين الأنقاض لتعيد كلمات الوفاء على مسامع أبي الحسن الذي لم يعد ينصت. سلا المستعمرة،أحلام جوبا، ممتلكات كليوباترة سيلين المصرية تألق موريطانية الطنجية، ترقد هنا تحت. تهب ريح على الراية فتعري

الأسوار الحمراء.غندورة السقاء الأرحوانية ترفرف بدرقاتها النحاسية كعلم.اللهم أرح أمير المسلمين الطاهر وأشمله برحمتك الإلهية ، نجل أمير آخر للمسلمين و المشمول أيضا بعنايتك، هو أيضا ابن أمير حتى بدايات الزمان، حين كان الله يمنح الدوام للأمبراطوريات، اللهم أرحه في قبره الترابي هو وزوجته وأنجاله، الذين يرقدون في أنفة وشموخ، فأطلال هذه الأسوار والصهاريج المقدسة جزاء لهم بهذه الذاكرة الأبدية.أما الإهانات وتطاحن الأخوة، الفتوحات و انتصار الخير الأبدى فقد أصبح كل ذلك مأوى لعالم جديد حيث فرحة النصر النهائي لم تصل بعد إلى مبتغاهـا.

فوق المدرج الذي يرتفع جهة البوابة الكبيرة يرن طنين الحشرات الملح، الفراشات رموز تعلن التقاء الحضارات.نشيد شمس الضحى، الوفية لحبها، ينشد الموت لأخوانها، كصرخة الهولندي المرتد بين البرابرة. أرمي بعض النقود في الصهريج و أطلب سرا تحقق رغباتي. ترحال اللقالق المضبوط الذي يحملهم الآن من قلب إفريقيا ينتهي فوق معبد.يقترب السقاء العارف بالطبيعة البشرية،يمدني بكأسه اللامعة المليئة بماء الأنقليس المقدس . في نظرتة أكتشف أن كل الرحالة و المسافرين ارتووا من مائه، في صبره اللامتناهي صورة الملاك المحيي.يقع النحاس في خرجه كما يقع النور على عينيي. من خلال كوة الباب أرى الريح بعيدة في دوامتها السوداء،فارتفعت فجأة سحابة من التراب لغت سربا من الأطفال الباعة. حينما أدور حول نفسي أسمع نداء القبرات البعيد و الملح بينما تتقاطع بعض المباني في وضوحها

العاري.بائع الماء الذي يعرف قيمة النقود من خلال وزنها
ورنينها،يشكرني ويباركني رافعا ذراعيه إلى السماء: " بارك الله فيك! "
فأجيبه " مع السلامة! " أعبّر بابا و أفكر: لم يعد الموت موجودا. هذه
هي نهاية الموت.

كتاب الحيوان

تمارة مدينة صغيرة توجد في نواحي الرباط، محاطة بغابات الكافور ومعروفة بشواطئها أكثر من حديقة حيواناتها التي بدأت، حسب عباس، بهبة: المجموعة الملكية المهداة من طرف حكام بلدان عديدة الأوصاف والإيضاحات تجعلك تفكر في فلك لا يضاهاى. كنت متأكداً أني سأجد عينات مختلفة من إفريقيا وآسيا. رافقنا ذلك الصباح، الطيب، ابن عباس الصغير. حضوره وعد بشئ عجب كان الأب يرغب إضافته لتجارب الطفل بعيونه المشرعة على الدهشة.

عند المدخل كان هناك حراس عديدون يعطون الانطباع بأننا أمام محمية متميزة. كان عباس يتحدث عن طيور غريبة. الطاووس المائل إلى الزرق، طائر الرحيق، الديك البري، الكركي، الخيرو و ديك الخلنج يتقاسمون الحوض مع النحام ومالك الحزين الذي يجد أيضاً توازنه بمهارة. كان احتمال وجود ذلك المكان يتلاشى كلما توغلنا أكثر.

حينما نتقدم عبر ممرات ترابية عديدة نترك وراءنا المناطق القليلة الخضراء حتى أصبحنا أمام بعض الحيوانات السجينة وراء القضبان، كما يحدث عادة. كانت المجموعة تقتصر على أسد عجوز يتشاءب ناعسا، فهد أسود يبدو أن وطء الأسر أحدث به أضرارا بليغة، نمران مخططان، فهد أمريكي ألهم تعاليق المرشد التطوعي الراضية، قفص قردة وبعض الطيبة الجبلية أكثر حرية داخل حظيرة واسعة. أقفاص عديدة، بأساطير

عن قاطنين مفترضين، أربكني فراغها. الأحواض الجافة أثارت انتباهي، وخاصة واحد كبير الحجم يمكنه أن يأوي، مع العناية اللازمة، حيوانات مائية كبيرة الحجم لجلب الزوار. كلما تقدمنا أكثر، مسبوقين بالطيب، كان عباس لا يكف عن إظهار رضاه وزهوه، أما أنا فكنت قد بدأت أتضايق من الحر الذي أصبح حينها شديدا جدا. لما تقدمنا أكثر إلى الأمام اختفت المسالك في الغبار، وكما لو كنا قد غادرنا الحديقة سرنا وسط الحقول في طريق يسلكها الجمالون و المكارون. كان صعبا علي أن أداري سخطي. لقد وعدنا عباس بقطعة من الجنة فإذا به يقودنا إلى صحراء لا يزورها ولا رب أسرة حصور.

حينها بدأت أفكر كيف أكافئه على فعلته. كان عقابه على جراته لازما. تخيلت أن أجعله يمشي في يوم جاف قانظ وسط بقايا ويليي الملتهبة، أو نبتعد مسافة طويلة عن الطريق المؤدية إلى مكناس فأرسله للبحث عن مؤن غريبة، بحجة أن إتقانه للغات يضمن عودة غانمة. كلما كان عباس يتسم كنت أنا أبحث عن أشكال جديدة للانتقام، لكن فاجأتني غبطة الطيب الذي لازال ينظر بامعان إلى ذلك المكان الذي لا أهمية له.

حينما خرجنا، مع عبارات الشكر الكثيرة التي وجهها عباس للحراس الذين ردوا بأدب، لم أبدأ أية ملاحظة. لكن عباس، بجراته المعهودة، جعلني أكافئهم بأخردهم بقي في جيبني. بعد مدة طويلة وصلنا قرب بعض أشجار الدردار. تحت ظلالها توجد عين ماء وفوق الصفا تلمع آليات معدنية كثيرة تستعملها السابلة لإطفاء ظمئها، بدون ارتواء

على ما يبدو. الرجال الذين كانوا هناك لا يبدو عليهم أي انشغال ولا هم في عجلة ليتفرغوا لأمر آخرى.

الحقيقة أن ذلك كان دردشة برداذ الماء المنعش المتدفق من المصرف. توقف عباس عن السير و انضاف هو و الطيب إلى الجماعة. وبعد تبادل بعض العبارات اقترب مني عباس وهويمد لي كوبا كبيرا وأضاف: "هذا ماء عين صاف و بارد. لا بد أنه جيد. ينزل من الأعالي ويحفظ في باطن الأرض. لقد سلك طريقا طويلا قبل أن يصل إلينا".

ما أن عاودنا المسير حتى عاتبني عباس بلطف لأنني لم أقبل العرض، موضحا لي خصائص السائل وأهميته للحياة. تحدث عن القيمة التي يحظى بها حين يعوزنا وعن قيمته التي لا تقدر في رمال الصحراء، وعن كوابيس الذي يتيه في الصحراء فيضطر لشرب بقايا جسده المشتعلة إلى أن يفقد وعيه في بحر أحاج. أحال عليّ حكايات عائلية عديدة متوارثة شفاهايا تعود إلى زمن القبيلة.

مقتنعا أن الوقت المناسب قد حان لأبدأ احتجاجي، سألت الطفل عن انطباعاته حول النزهة. في ذلك القفر لم تكن هناك حيوانات ذات قيمة، لا طليقة و لا حبيسة. حرك الطيب حاجبيه وبدأ يعد الحيوانات التي أثارت انتباهه. وفي تلك اللحظة تذكرت شيئا مقلقا في الظاهر: لم نشاهد أي حمار أو جمل، عناصر لا مفر منها في المشهد الطبيعي. لكن الطيب أوضح أن حضورها لن يكون مفيدا، إذ يكفي أن نذهب لأي سوق أسبوعي أو التجوال في أزقة المدن العتيقة الوعرة لنجد هذه الحيوانات التي هي، من ناحية أخرى، امتداد للإنسان وبالتالي لم يكن طبيعيا

تخيلها مفترقة عن بعض. وهكذا تحدث عن دهشته من الكلاب ذات الرؤوس الثلاثة أو حراس جهنم (سر بيروس) بل كان محتارا أيضا حول الرأس التي تسيرهم. أسراب الأرخص والقوتاش لم تكن مدهشة أكثر من السرطان – الذي يرقد الآن في البحر – والذي سمع عنه في الأزجال التي كان جد أبيه يتذكر بها كتاب الحيوان. كيف يمكننا أن ننسى، قال: هؤلاء الرماحون الملكيون حين نتسلق برج أبا وأقو ونتأكد من مستوى اكتماله، أو الأقفاص الهائلة التي تأوي الأيل العنزي، وماذا عساي أقول عن انسياب القهيقران والبهاموت، الغائب لحجمه الذي لا يسع في الحوض المملوء مع ذلك بالأفاعي المائية. كانت الحكايات تتوالد: ياقوت أصفر في حجم الثمر يتدلى من النخيل ويغذي، بدقة ساعة مائة، نهم الفراشات العملاقة التي يمكن أن تأوي تحت جناحيها إثني عشر نفرا مسلحين، حينها كانت وحوش الغواية نائمة. كان عباس يحرك رأسه موافقا دونما اهتمام بكلام ابنه. اعتبرت نفسي منهزما. حينئذ اكتشفت أن ما كتب حول الحيوانات كان مزيفا وبدون أثر للخيال. لا مجال للشك، فكرت، فعالم الحيوانات الوحيد المسؤول عن كل هذا هو

بورخيس. BORGES

حریم السلطان

خرجنا ذلك اليوم صباحا متجهين إلى الحقول. اقترح عباس أن نتجه جهة الشرق. لم أنتبه لإمكانية حدوث أية مفاجأة ولاحظت على محياه نوعا من الغبطة. كانت إيماءاته أكثر قوة وكانت كلماته ترن حادة وقطعية. في الطريق أمر، بقوة، أن نترك الطريق الرئيسية حيث يستريح بعض المسافرين المتجهين إلى فاس. توغلنا بين أشجار الزيزفون و مشينا بعد ذلك تحت الظلال الخفيفة لأشجار العرعر في اتجاه مجهول. عندما عبرنا البساتين لاحظنا الكروم التي تزرع بكثرة في هذه المنطقة منذ الحماية لتلبية حاجيات الأجانب.

اتجه عباس بالحديث إلى موضوع الفحولة لدى بعض مشاهير السلاطين. تكلم عن تعدد الزوجات و عن كيف أصبحت الزنجيات الحبشيات الفريدات، اللواتي أدخلن في عصور سالفة، مصدر لذة عربية، كما تحدث أيضا عن ضرورة امتلاك زوجات شابات وعن فائدة ذلك للحفاظ على فحولة الذكور. وتابع كلامه بوصف الحمامات التي حقق فيها بعض رجالات التاريخ عظمتهم. في ذلك الحين كنا قد أنهكنا الدمجاجة حيث يحفظ حضور ناعورة منعش وزهر بعيد. بعد ذلك انحدرنا، بين طنين الزيز المصم، إلى منبسط مزروع بنبات يشبه الشمندر كان لونه أخضر رماديا وناعم الملمس. وبحركة من عباس جعلني أتبعه لبضعة دقائق حتى

أصبحنا وسط الحقل. قطف بعض الأوراق بدون عناء وببلاغة اليقين الذي
يجلل كل احتفال.

- voilà - صاح مبتهجا وهو يطوي ويعرك الورق بعناية مقتره.

أمال وجهه في اتجاه يديه المفتوحتين وأخذ نفسا عميقا مغمضا
عينيه من شدة اللذة. قرب راحتيه المليئتين من تلك النبتة وطلب مني
فعل نفس الشيء.

-هذا هو العطر الأنثوي الأكثر اشتها في العالم، أضاف وهو يضع
في يدي المفتوحتين أيضا فتات النبتة. لم أخف تعرفي على النكهة لأنها
جللت بالفعل في لحظات ما كل النساء اللواتي عرفت، في أوقات
معينة من النهار، حسب ميولاتهن، بغض النظر عن العقيدة أو الأصل.

انظروا - أكد عباس منبسطا ومجيبا على دهشتي، مشرعا
ذراعيه كقضيب ترفرف عليه ملابسه كحبال مركب شراعي - يمكنكم أن
تتخللوا أنفسكم وسط أكبر تجمع ممكن للإناث - قال موضحا وهو يرفع
ذراعيه إلى السماء وأسارير وجهه كانت و كأنها تقول: الحمد لله!

-من خلال العطر الذي تحويه هذه النباتات و المتناثر فوق هذه
الأجساد ذات الألوان العجيبة، تخيلوا سيادتكم أنها تدثركم ببشرتها
النضرة كقشرة الخوخ المخملية. عيون عربية، سوداء ظليلة، مائعة،
خضراء، زائغة، مرنقة، زرقاء ورمادية كنسيم أبي رقرق، تتأملكم الآن.

- ولكن أيضا - أضفت - البشرة المجعدة الهرمة، الضامرة

المبرقشة و الرق الذابل...

- لا - رد جازما- مقدر أن تختار برغبتك. هذا هو حريمك سيدي! قال هذا ثم عاد على أعقابهِ وتركني وسط ذلك الحشد من الأجساد اللامرئية.

عدت ببطء وأنا أفكر فيما قيل. كيف يمكن أن نفكر في سلسلة الوشائج التي تربط الإنسان بمحيطه؟ أية روابط يمكن أن تقام بين الموتى والأحياء من خلال الأشياء؟ أيمن أن نبقي غير مبالين أمام كتاب سيقراه الآخرون؟ هل سنوجد بشكل ما في تفكيرهم؟ والانفعال؟ أيمن أن تتكرر فينا نفس الأحاسيس، نفس الارتباك أمام مشهد طبيعي لا يتغير إلا خلال آلاف السنين؟ وهل ينظر المنتصر كما ينظر أبناء المنهزم؟ وحين نلبس سترة المحكوم بالإعدام أيلتف بعنقنا حبل المشنقة؟ أيمن أن نعيش في ذاك الذي سيسكن بيتنا؟ ... والمرأة التي رأينا مرة واحدة فقط، ولكن نامت في فكرنا، أيمن أن نلحقها من جديد إذا شممنا، صدفة، عطرها الجسدي و نحن نعبر نفس الزقاق؟ ودرابزون الدرج؟ نعم، ماذا عنه؟ هل ستلمسنا الأيادي التي لمسته؟ وهل سنسكن إلى الأبد جسد المحظية؟ أنقتسم كل شئ: الهواء و النور و الكلمات؟ هل سنكرر مع أحد ما، بعدمائة سنة، أسرارهِ وشهوته الدفينة، الاحتضار و القنوط؟ هل سيكون هناك ماض؟ هل كان هناك مستقبل؟ أيموت أحد ما حقا كلية؟

كانت الشمس تلهبني. استرحت على جانب الطريق تحت أوراق شجر البطم. أغمضت عيني فاستمرت السماء زرقاء بداخلي، كنت أطفو وسط سديم. كانت الريح تغني أحيانا بين المزروعات التي أصبحت الآن غابة من الأذرع و السيقان. كانت هناك وجوه هائجة وشفاه متلهفة

،ابتسامات مجاملة وأياد تتقن لغة المداعبة. رائحة السوسن و الناردين
تخرج من الصدور الناهدة، كالتفاح الذهبي الذي نضج مرة قرب وادي نهر
الأوبوس OPUS. شعور متموجة لإنات آتيات من تخوم قصية، تلمع لينة بين
الأعراف و الخمارات المطرزة. أدخنة الأرض تصعد بين أياد مجنونة تمزق
ثيابي كشفرات مستعدة للنحر. نساء من بخار ودخان هزمتني بضربات
متتالية عدة مرات فسقطت فريسة للصقور؛ بعد ذلك أحسست بعناقهن
كبيزان تغتسر الأعضاء. أعشاش الإبط ومنابت ورد العانة كانت تخنق
أنفاسي. النور، المتواطئ مع هذا التنكيل اللذيذ، أعمى بصري فيما كانت
اللمسات المهيجة تتسلق العنق.

في هذا المستوى كانت الشمس تخترق الأرض فتخرج منها
العفاريت صعدا في شكل زوابع صغيرة فيتأكد بذلك ظهور الحوريات. تظهر
دوامات غريبة لغافة. انهم كناوة، رقاصوا الجن، أصحاب الدم الغامض
والديانة البدائية. ينضمون جلسة مع طبال وهم يوقعون خطو ودوران
الراقصين الخاطف بقرقاتهم المعدنية التي يرفعون فوق رؤوسهم و التي
تشبه ملاعق طويلة ومزدوجة. تابعت، مركزا مجنونا، المقارع المحدبة على
جلد الطبل الذي تغطيه رموز سحرية، يد فاطمة ونجمة القدر. نكافة زنجية
من نفس الفرقة و التي تحضر دائما طقس المضجع كانت تتقدمهم وهي
تحمل شمعة كبيرة. لغتنا الزغاريد برناتها كما هو متداول منذ قرون، بكل
الألسنة والأنفاس والأفواه، منذ زمن بعل وكاهناته.

حينما استيقظت كانت تنهمر من كل جسدي رطوبة مخزية. عباس
كان هناك، واثقا من المسارة ومدركا لدسائسه. وضع يديه على كتفي

كأب حين ينقل الأسرار الضرورية التي تفتح الطريق إلى الحكمة. مسح صدغيَ بالماء بينما العرق لازال يتصبب من وجهي. ساعدني على الوقوف وأشار أن وقت العودة قد حان. من فوق الكتف رأى الحقول الشاسعة ووجدت أنا ملاذا في سلوكه المفعم بالتواطؤ.

بركة

البركة نعمة إلهية تعودنا إلى أبواب الجنة. لقد كانت فضلا على أولياء وسلاطين عديدين. يمكن أن تتجلى في الفاتحة: تلاوة أولى السور القرآنية بكفين مفتوحتين ومجتمعين ترفعان في الختام حتى الصدر أو الوجه. بفضل هذه البركة حقق المولى إدريس سلطانا عظيما ونفودا كبيرا. و الذي لم يصطف يستحسن ويبجل هذه الهبة اللدنية التي أدركها كل مرابط أو ولي مغربي. وحين يؤم الزائر قبته يتمنى حصول البركة وقوة الإيمان. يتمتع بها كل سلطان كشرط لسيادته. يرتقي العادل إلى الحق فيحقق الرؤيا، والمحارب الجسور الذي نشر دعوة وعزة الله، الرؤوف الرحيم، يصبح قائدا للمؤمنين. كل البشر، من كل زمان وملة، طمحووا في الاتصال بالذات الإلهية كبركة ترفع مقامهم وتعودهم في طريق الكمال. فالبركة، قبل كل شئ، تروم انتصار الإنسان على طبيعتنا. أما أنا، الغارق في مهمتي الدنيوية، فهذا كل ما أتمس.

L'accès n'est pas permis aux non-musulmans

من سطح إحدى الدور العتيقة التي أصبحت اليوم محلا لبيع زرابي جميلة، أشاهد السقوف الخضراء لجامع القرويين . الأخضر هولون النبي. من هنا، من فاس البالي ، المدينة الإدريسية التي شيدت في قعر الوادي خلال القرن السابع الميلادي أتوحد مع روحانية الغرب الإسلامي، المغرب. فاس الجديد بنيت خمسة قرون بعد ذلك من طرف المرينيين. مدينة أخرى ، الحديثة، تؤرخ للاحتلال الفرنسي. كل هذا العمران هو فاس، العاصمة الروحية للمغرب، التي وجدت نفسها هكذا محاصرة بين نهريين، الورد و الزمن.

أصل إلى هذا المقام بعد اجتياز البوابة الهائلة المكسوة بالزليج وصور الزهر و النجوم والتوريق العربي: باب بوجلود. بعيدا عنها، في ساحة النجارين، حيث يتجمع عدد من صناعات الأثاث بالقرب من فسقية رائعة معطلة، يوجد ضريح المولى إدريس الثاني، باني فاس، الذي انتظر في رحم أمه ليكون نسخة من الأب أول عاهل مسلم، قتل مسموما من طرف خليفة بغداد لغيرته من شهرته و عظمته. لكي أصل يجب أن أشق طريقي بين أصوات الباعة وصغير الحدادة الصاخب، بعد ذلك أوصل سيري حتى سوق العطور و العطارين. بين روائح شتى تظهر أعشاب سحرية، بخور وقشور، باقات طيبة، تميمات وشراب للتداوي.

أقرأ إعلانا. من هذا الموقع يمكنني تأمل المسجد العظيم الذي شيد في نهاية قرننا التاسع وزين على امتداد القرون. حشود المؤمنين التي تؤمه، من أبوابه الأربع عشرة المزخرفة بسخاء، يمكنها الصلاة في أروقته الست عشر التي ترفعها غابة من الأعمدة داخل امتداد شاسع. الابتهالات ترتفع عبر الثريا المشتعلة بمآت المصابيح.

من على هذا الارتفاع تبرز مدارس عديدة كالبعونانية، العطارين والمصباحية بفسقيات فناءاتها حيث يغرد الماء متحديا شمس السميت. بعيدا عن صناع الصفر و النحاس يصل أحيانا مع الريح، مشبعا بلزوجة الجلود النتنه التي تدبغ في عالية النهر ضجيج المطارق المعدني، الذي يشكل مصابيح وصينيات وجففات، بالقرب مني يبرز زقاق الصباغين المتعدد الألوان بين سطوح قديمة شيدت فوق منحدرات.

في هذه المدينة السرية تعلن آخر ديانة سماوية قوتها. شهادة لإله إلا الله، الصلاة، الزكاة، الصوم و الحج هي أركان الشريعة الإسلامية التي تنير طريق فاس. في هذا الفضاء أعتقد أن المدنس لامكان له. هل توجد طريقة للتحقق الروحي تهدي إلى طريق الكمال بين الإله والكون؟ أجمع قبضتي وأعلم أن خلف هذه القوة تنغلق أجزاء أخرى في إبهام سلطانها السعيد، الذي تلاحظ فيه كل صباح اختلالات النظام الذي قد تصدع سلفا. أتساءل عن ماهية الإنسان داخل هذا الجهد المتنافر الذي يدفع هذه الكائنات في حركية جامحة. يجمعنا الزمان و المكان، لكن الصراع من أجل

كبح الطبيعة البشرية وإعطائها تفسيراً ميتافيزيقياً، لا زال يشكل بالنسبة للبعض فقط مهمة معترفاً بها.

القرويين قلعة للإيمان، كما كان الحال بالنسبة للكنائس الرومانية الكبيرة و الكنيس الصارم . في فناءاتها الجميلة أرى المؤمنين خاضعين للقدرة الربانية، منهمكين بعناية في وضوئهم الذي يسبق كل صلاة. في الخارج يستمر الهمس الحضري في منحرجات الأزقة الصاعدة و النازلة مع تنقلات القاطنين المعتادة. لكن المآذن و المساجد ومحاريب الصلاة ستظل هنا جاهزة كفضاء لتأملات هؤلاء الرجال الذين يحافظون على يقظة الروح رغم صراخ المكارين – بلاك! بلاك!

عندما أنحدر يلغني سيل آدمي. يثر الذباب حول حمير محملة تغيب في ظلال أزقة تبدو وكأنها تنزل إلى شكل مسبق للسعير. أقدام حافية و خفاف صفراء لامعة تتسلل فوق حجارة تحملت أكثر من ألف سنة خطو الرجال و الدواب .

مكناس الإمبراطوري

اصطحبت المرتد الهولندي سيدي أحمد بن عائشة .حملنا هدايا غرائبية للويس الرابع عشر .أسود، نمورو فهود ارتجفت لها سيدات فرساي. عدنا البارحة من طريق سلا.

أنعش واد بوفكران بطن جوادي الذي لازال يقطر منه الماء حين تقدمت من جهة الغرب بين أنسجة قيسارية الدلالة.أصعد جهة ساحة الهديم فيتردد صدى حوافري بين أعمدة وأروقة الباب السلطاني.باب منصور الباذخة، تليق بمقام أمير المؤمنين.أصل إلى ساحة للاعودة المجاورة للقصر والقريبة من بوابة فيلاله من حيث يعبر السفراء المسيحيون مرتبكين و متضايقين، خائفين من الوصول إلى قبة الخياطين حيث يستقبلون من طرف المولى إسماعيل:رجل ذو بأس شديد،بنى هذه المدينة بيديه وثلاثين ألف عبد، حاصر الإنجليز في طنجة أربعين شهرا ووسع المملكة...يضاعف الصدى حضوري بين الأسوار العالية كما لو كنت جيشا.يصفر الهواء أمام باب الريح حين أخب جهة مخزن الحبوب تلفني ظلال برج الماء قبل أن أصل إلى صهريج أكدال. أترجل و أمشي قبالة الشرفات. أصعد. من هنا تعرض مكناس مآذنها الستين الخضراء. وهكذا تظهر المدرسة البوعنانية، الجامع الكبير و الحرس اسطبلات تأوي إثني عشر ألف حصان – وخلفها المدى، البعد الذي تتيه فيه عيناى السابحتان في اللامنتهي. أعتقد أنني فكرت في كل شئ. أتذكر أفعالي: العادية، و

الجديرة بالتقدير، و المرغمة، النهمة، القاسية و الدنيوية. فشلنا: الأميرة اللجينية لن تكون قرينة سيدي. لن ينام فوق فنتتها. لقد بدأ الحرس-الزنجي يسمع صيحات غاضبة. سيبدع الأمير عقوبات جديدة، سيجز رقابا. حانقا، سيرغب هذا اليوم في مضاجعة الخمسمئة امرأة اللواتي يكونن الحريم. أجهل مصيري.

العيساوي

إنني ألتهم عقربا. قروح أقدامي تنز قيحا. أخي علي هو أيضا يلتهم الحشرات السامة. أومن في بركة سيدي عيسى و لاشئ يمكنه أن

يزعزع إيماني. أسلم إليه. لهذا فالتعب لا يردعني. نحن فيلق، أعمدة
متمردة في منتصف الصحراء. نقتات من الحجارة والأفاعي. نفر من
المستبد مولاي اسماعيل الذي يخرجنا من مكناس، ولكني أعلم أننا
سنعود بفضل الله. قبل الوصول إلى حميرة سيموت المجدوم، سأنقذه
بأسمالي لأنه متعب زاهد، لن تصل القذارة أبدا إلى لحمه. فهو ينتظر،
ككل عيساوي، أن يحرك سيدي عيسى شجرة الزيتون وأن يطهر البئر. وإذا
طلبوا منا قرابين جديدة، سيرتمي أربعون آخرون منا في الفراغ، سنضحى
بدمائنا لكن مكناس، في النهاية ستكون لنا لمدة سبعة أيام ابتداء من
الثاني عشر للمولد النبوي.

استراحة السلطان

فوق سطح شاسع حيث تنتصب أربع مائة سارية و أمام جريان أبي رقرق البطي والحتمي رفع آبائي صرحا كبيرا أمغر هو صومعة يعقوب المنصور غير المكتملة، و التي تسمى اليوم صومعة حسان بواجهاتها التي لا تتشابه. أسوارها مزينة بأشكال هندسية تستحضر بشكل جميل طبقات من السحب تنظر جهة السماء. ست قاعات مربعة ومتراكبة، كلها مغطاة بقبب، تنضاف على شكل درابزين حيث - حسب ليون الإفريقي - يمكن لأربعة جياذ الصعود في نفس الوقت إلى أن تبلغ ارتفاعا غير مألوف خصص للمراقبة. مركز هذا الفضاء كان ربما محرابا للصلاة. في الجهة الجانبية توجد الحفرة القديمة التي كانت مخصصة للصهرج و التي أصبحت اليوم نصبا للشهداء.

في الجهة الخلفية يوجد ضريح محمد الخامس الذي رسم على شكل قبة بمسجد، صومعته المنعزلة هي نفس صومعة حسان. كل هذه البنايات تعكس غنى المعمار المغربي الأصيل. من أجل هذه الغاية استعنت بخدمات أربعة مائة صانع واستعملت كل تقنيات الفن المورسيكي.

فالضريح المربع الشكل توطره أبواب برونزية كبيرة و أقواس تؤدي إلى الرواق الذي يمكن من خلاله رؤية وسطه. في طابق سفلي يوجد

نصب من الجزع الأبيض منحوت على جثمان العاهل. في إحدى الزوايا يرتل القرآن بدون انقطاع. مرمر، أحجار كريمة زاهية الألوان ونقوش عديدة تزين الجناح الدائري ومن قبة ذهبية تتدلى الثريا الكبيرة التي تنوس فوق التابوت الحجري الذي يصله ضوء خفيف من الشبابيك الزجاجية الملونة. أما المسجد، المزين على الطريقة المغربية، بفسقيات ونقوشه ورخامه، يديم السكينة و الصمت تحت قرميده الأخضر اللامع. في مهابة يقف أفراد من الحرس الملكي ببرانسهام البيضاء أمام أسوار المرو.

أدارة ومرابطون، موحدون ومرينيون، سعديون وعلويون بسطوا سلطانهم على المغرب القديم بعد حضور عريق للبربر و الغنقيين، الرومان والبنزطيين. تخلت المدن الإمبراطورية كفاس ومراكش عن سلطانها لصالح مكناس، عاصمة المولى إسماعيل. تكاثر الحضور الأجنبي بفعل الإستعمار. وفي 1927 تبرع محمد الخامس، الإبن الثالث للسلطان العلوي مولاي يوسف، على العرش وهو في سن الثامنة عشرة. كانت ربح الإستقلال تهب على المغرب. ارتفعت حدة القمع فتم نفي العاهل إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر. ظروف الحرمان و القهر التي عاشها جعلت منه رمزا للشجاعة و المقاومة الوطنية. في 1955 عاد السلطان إلى عرشه وفي السنة الموالية استرجع المغرب وحدته. حين عودته، وفي تلك الساحة القديمة بألف سنة، أقام محمد الخامس أول صلاة جماعية. في نفس المكان، سنوات بعد ذلك، سيتلقى جثمانه المكشوف آخر تكريم من طرف الشعب. كنت هناك ! وهناك بكيت!

فالإسلام بهذا الشكل ليس دينا فقط، إنه ثقافة، طريقة في فهم الحياة وفي تخليدها، تصور حول الطبيعة حيث كل مغربي، كما كان يقول والدي، بمثابة أسد.

الدار البيضاء

تضطرم الدار البيضاء تحت انعكاسات الشمس. البواخر الراسية على الميناء تبدو وكأنها تزحف نحو الأزقة. رافعات وأبراج من الصلب تنضاف إلى المباني فيكونون معا غابة من صوامع الأزمنة الحديثة. سلع عديدة تصعد وتنزل برافعات رحوية، بينما يهبط رجل متمسكا بإحدى البكرات. يتابع البحارة أنشطة عمال الشحن وتختلط لغتهم الصغيرة بضجيج السلاسل وصرير الحبال، السباب واللعنات لا تغيب مع ذلك عن أية لغة. بعيدا يقهر المرطم الهائل اليم.

فجأة يتوئم صغير جهير المدينة الكبيرة مع كل مرافئ العالم. إنه عويل البواخر، الإعلانات الكونية للملاحة البحرية. هكذا تعيش الدار البيضاء في نفس الآن في مرسيليا، السويس ومدراس... رباط مشترك: إنه المحيط الذي يلف كل شئ. فوق الربى تفقد هذه المدينة تاريخها بفعل الحداثة. تبرز أحياء ثرية بين الجهنميات وشبح تشرشيل. على الساحل، يحمل كل شاطئ اسم أحد المنتجات الشهيرة. المراقبة الدقيقة عند الولوج تجعل هذه المركبات أشبه بحواجز جمركية. فوق الرمال تتلقى النساء بركة الشمس و أحسادهن الشاحبة ترتعش في المياه الباردة. في الخارج عشرات من الكواسر تعرض، تطلب، تترصد - يذكرونني بأطفال كانييتي CANETTI - لماذا يجب على الرحالة الطيبين أن يكونوا

قساة؟ - أسير بينهم تحت مظلات المحلات التجارية، أخرج بعض النقود وأقذف بها في كل اتجاه.ضحكاتهم وصراخهم يستمران وأنا داخل إلى Oustalet مرفوقا بطل بوكار BOGART الذي يتناثر في المحل ويذهلني.أتجاوز العتبة موجهها بالأخيلة.الضوء دليلي. أجلس أمام نافذة حيث يمتد المحيط وثيرا حتى الأفق. في الأسفل يمتد الإفريز الصخري حتى البحر. الأمواج الطافحة التي ترتطم بالمنحدر تنساب فوق السطح الصخري لتغمر أحواضا عديدة على شكل مستطيلات متقنة، حيث أجساد الصبية الكثيرة تطفو على إيقاع اليم المضطرب. الحوض المجاور للبحر هو أيضا أكثر عمقا وخطورة، حركة الموج تخلق دوامات مائية. حين يصعد الماء الأجاج في صخب، يتقدم على شكل أمواج عالية خاطفة فوق امتداد صخري شاسع. من خلال ثقب وشقوق يعود الطوفان إلى المجرى الساحلي. عراة، يتحرك الأطفال كالعوامات، فقط متعتهم البادية تقلل من خطورة المشهد. إنه الإرث القرطاجني و الفينيقي، أفكر،إرث القراصنة البربر،إنه الدم المحموم بوهج الصحراء في البحر ارتمى.

بعيدا، بين الضباب، يطل عالم الخلود.يتحرك بوكار BOGART بين موائد المطعم. يأخذ النادل الخدم طلباتي فأدرك أنني بقيت وحدي. عيناى تتابعان من خلال الزجاج رحيل باخرة تتبعد الآن تاركة وراءها شريطا من الدخان،موقعة إبحارها بذيل من الزبد و النوارس. يرتمي الأطفال في الحوض دون وجل،وللحظات يبدو أنهم يجمدون قفزاتهم في الفراغ،بعد ذلك يغوصون ببطء، يختفون.أمواج عديدة تخفي الواحدة تلو الأخرى أجسادهم،حينما يسبحون في العمق البازلتي العكر. يظهر واحد منهم

في نقطة غير متوقعة، يتنفس بعمق ويبدو من جديد كما لو أنه معلق، بعد ذلك يظهر واحد آخر فيتبعه الآخرون، رؤوسهم لا تكاد تبرز داخل جلبه تخترق الضجة البحرية.

أعيد نظري جهة الأفق البحري المفتوح فألاحظ أن الباخرة قد اختفت، أتفحص الساحل فأكتشفها فقط من خلال دخان متناثر تمحوه الضبابية. أتجراًعلى تفحص المكان بتأن، فالغياب و الصمت يجعلانك تنتبه إلى هذا الواقع. في الأسفل يصل رجلا درك حتى الأحواض وهما يتوعدان، عشرات من الصبية يتركون الماء تحت تهديد الزعيق و الهراوات البوليسية. مجموعة منهم تغطس بسرعة متلذذة إلى أبعد حد بالماء، يكررون العملية عدة مرات إلى أن تتم ملاحظتهم عبر الممرات والمنحدرات. فجأة، ودونما استغراب، تصبح الأحواض فارغة فتضاعف عزلتي. حين أقطع بالسكين أصدر الصوت الوحيد المسموع في الداخل. أحاول بدون جدوى أن أرى الأرضفة. أؤدي وأخرج مرفوقاً بتحية النادل الاحتفالية. لازال المكان فارغاً ومعتماً. أعتقد سماع ضحكات بوكار BOGART في إحدى الزوايا الداخلية. أعاود النظر جهة الأحواض على أمل أن يكون الأطفال قد خاتلوا حراسهم، أمواج عديدة لازالت تجلد الإفريز فتغرقه من جديد. المكان بدونهم موحش. إنها الثالثة بعد الزوال. عندما خرجت ملأ الهواء الجاف كل رثتي. الشارع مهجور وقائظ لدرجة الإرهاق.

أقرأ إعلاناً: الدار البيضاء، Casablanca. دار البرتغاليين. يجب أن أذهب إلى ساحة محمد الخامس، وبعد ذلك إلى مربى المائيات. الحضور هناك لا معنى له ، سداجة. أفكر في الطيب. الآن، ومن على الرصيف، أبحث ثانية

في الأحواض، أرى المحيط و أخجل من نفسي: أعرف أنني سأخون عباس
إذا ما ذهبت.

حكاية قاسم بن الشريف

إلى برثا كويصاص

كان قاسم بن الشريف مغربيا رشيقا وقويا، و كانت حياته في منطقة الغرب خالية من أي فعل بطولي. في إحدى الليالي سرق شخص متغطرس معروف في المنطقة بغزواته، أمحى اسمه من ذاكرة الجماعة، أجود فرسين كان يملكهما قاسم. ولما علم هذا الأخير بالحادث، اتجه حيث يجتمع الناس وقال: " من سرقني سيدق بيديه وتدين وسيربط فيهما فرسي".

بقي الجميع مذهولين لأنهم يعرفون السارق ويعلمون أنه عنيف وذو بأس نادر. وفي نفس الوقت كان قاسم بن الشريف محترما لنبله ولتفانيه في عمله.

انتظر قاسم بحصافة مدة من الزمن لكي يعاد إليه ما سرق منه. ظهر بين الناس لكي يمنح فرصة لمن كان يود إرجاع المسروق ولتجنب الفضيحة. ولما تأكد أن التبصر والرأفة لم يعطيا أية نتيجة، امتطى أسرع جياده حتى وصل حيث العدو. طاف حول الخيمة وفي الوقت المناسب اقتحمها. هناك كانت هاجر، ابنة السارق، التي أخذت على غرة فغطت وجهها بلثام حريري مطرز بمهارة. كان شعرها الغزير الفاحم مزينا بصفائر. جمال المحيا و سواد العينين جعلتا قاسم ينسى للحظة سبب مجيئه.

حسم تردده فحمل المرأة على صهوة جواده وقطع بها جبالا وسهولا. عاملها خلال الرحلة بكل رقة وتجنب النظر إليها، لكن ذلك الجسد كان يلهبه. كانت يداها الصغيرتان الناعمتان تلفان وسطه وتحتكان به بشكل منتظم وهو ممسك بلجام جواده. كانت أنفاسها الدافئة تحاصر عنقه، زهداها الصلبان ينضغان كالبلسم على ظهره العريض القوي. جسدان منصرهان في صمت ركضا في جناح الظلام حتى وصلا إلى حيث شيخ القبيلة. أودعه قاسم الرهينة الغالية وحذره: " أنت المسؤول عنها أمامي ولا مكروه يجب أن يصيبها . لا تسلمها لأحد غيري و لا يجب أن يعلم أحد أنك حارسها".

استعر غضب السارق حين علم اختفاء ابنته، فخرج باحثا عن ابن الشريف بعد أن أخبر الجميع أنه إما سيسترجعها وإما سيقطع رأس المختطف. انتظره هذا الأخير بكل هدوء. رباطة جأشه وتحديه جعل السارق يخاف على مصير ابنته فتحول الغضب إلى بكاء فاستعطف ذليلا.

- أعد إلي الفرسين اللتين سرقتهما تعود لك ابنتك من جديد. أقسم بالله أنها في مكان آمن محترم – أكد باقتضاب ابن الشريف.

- لم تعودا في حوزتي لأنني بعتهما في سوق غمارة للا ميمونة-

صاح السارق حائرا.

- دق بيدك الوتدين حيث ستعقلهما واذهب للبحث عنهما. أنتظر ك

غدا عند الغروب – قرر قاسم بن الشريف.

لم يجد الأب بدا من شراء الدابتين، أدى عنهما عشرة أضعاف ما تقاضاه سابقا. أثبت الوتدين وربط فيهما الفرسين المسروقتين بامثال، قبل مغيب الشمس وأمام منزل قاسم بن الشريف في قبيلة سفيان. كان الكل يتابع المشهد في ذهول. لم يبد على وجه قاسم أي انفعال. كان الجميع منتبها لكلامه ولردود أفعاله.

-عد وانتظر. ستصلك ابنتك عند الفجر.

ركض قاسم بن الشريف على صهوة جواده طوال الليل إلى أن وصل بيت الشيخ. لم يسي إلى هاجر الجميلة ولو بنظرة، فحملها بدون ملاحظة. طوقت خصره كما في السابق، ولكن برقة أذرع وبإثارة جسدية أكثر جلاء من فرط الالتصاق به. قاوم قاسم كل ذلك. لكن الطيب المنبعث من الشعر والأنفاس الزاكمة كانت تهزه من الأعماق. كانت أشجار الشيخ و البلاذر دعوة للاستراحة وكان الليل يمتد هاجعا كامتداد الجسد الأنثوي على عضلات الفارس القوي الذي أحس، خجولا، بوجهها يستريح على كتفه.

بعد ذلك، وأمام الملاء، أقسمت هاجر أنها كانت مصانة. بهذه الطريقة انتقل صيت سارق المواشي، المغامر و الشجاع، إلى قاسم بن الشريف مضاعفا ومن ثمة انطلقت أسطوره.

في نفس الليلة لملم اللص فضيخته ومتاعه الضروري ورحل هو و هاجر من المنطقة دون أن يترك أي أثر. علم قاسم بالخبر في اليوم الموالي، حينما كان قد قرر أن يكلم الأب. أياما بعد ذلك وصل بعض الرحالة إلى المنطقة فأخبروا الناس أنهم رأوا أشلاء جثتين لرجل وامرأة شابة

فتعرف عليهما الناس.هاجمهما قطاع الطرق وعندما حاولا الفرار هويا في فج صخري.

يحكى أن شيئاً ما منذ ذلك الحين أحزن ابن الشريف، بحيث أصبح كئيباً وصموتاً. كانوا يعتقدون رؤيته ليلاً وهو يركض على جواده في نفس السهول والجبال التي شهدت اختفاء سبيته.استرجع قاسم ما سرق منه ونال سمعة كبيرة، لكنه فقد الطمأنينة. يؤكد الجميع أنه إلى يومنا هذا، حين نعبّر تلك الأمكنة، يمكننا سماع خب تلفه الريح.

فروسية

كان الاحتفال يمتد عبر الصحراء: موسيقى، رقص، لعب اللحظ، بيع و شراء... وفي الليل استمر الغناء ونبض الدربكات إلى حد الانتشاء. مشاعل و نيران أضاءت الخيام وعلى ضوءها الملتهب تنامت الظلال. عند الفجر دبت الحركة من جديد بين كلاب ضالة، حزم الحلفاء و الموائد المرتجلة لعرض السلع. بعيدا عن هنا، في المنبسط، يسمع صهيل بري. يرتدي الفرسان برانس بيضاء باحتفالية وشموخ. الجراب، رمز الغنى، يتدلى على صدورهم كالنجد. عدد كبير من المتفرجين يتجمعون هنا كأنهم يحدسون أن الجياد الجامحة ستمر أمامهم. كانت الشمس تضيئ كل شئ تحت سماء شفافة زرقاء. يبدو أن الفرسان يتكاثرون، هم بحلتهم الزاهية ومطيائهم بسروجها الباذخة. خفافهم تستريح على ركاب عريضة تنكل حرفها بالخيل. يفتح رجل ذراعيه الطويلتين ليبعد حشدا من الناس كان قد طفح من شدة الانتظار. وفجأة اهتزت الأرض: لقد بدأ حفل الفرسان. انطلقت السربة نحونا وأثناء الركض السريع المضرس تصعد كل صرخة مع الريح حبلى بنبرات تحمل آلاف السنين. الجياد نفسها تبدو جاهزة للعراك: المخطم كبير وراغ، الجبهة عريضة ومقعرة الجوانب، العنق غليظة من الجهة الأمامية، الظهر مستوية و القوائم ثابتة ذات خطو واسع. إنه الجواد العربي الأصيل،

الكستنائي الداكن الرشيق ذو الركض السريع. حركات الفارس توازن يأخذ مظهر الخفة و السهولة، حين يرفع ذراعيه ويشرع جلبابه للريح. تظهر بنادق البارود ذات الأستون الطويل المصقول مهددة وبريق عرق اللؤلؤ و النحاس يشع من قندقها. كل شئ يردد ويعوي. بعد ذلك، وحين لا تبقى إلا خطوات بين المتفرجين والسربة تبدو واضحة حدود الحشد حين تتوقف الجياد فجأة تحت سحب من الغبار و صيحات الفرخ وفرقات البنادق البربرية المصوبة إلى السماء. بعد هذا تلامس حفلات وأعراف الجياد شعرنا، فتدبر هذه الأخيرة لاهثة راكضة. يتكرر المشهد عدة مرات. ربما سيستمر الاحتفال على هذا المنوال حتى نهاية اليوم الثالث من الموسم. أما الآن فستتوالى الكرات في طقوسية مؤثرة كلما اجتمع سرب من الفرسان. الأعنة متوترة و البنادق في اتجاه الشمس، و الصحراء في المدى تلبس رمالها، وصهيل الجياد الجامحة حين ترفع قوائمها الأمامية، الناس مخلوبة، ضحكات هناك، همسات هنا، يهتز المنبسط، سربة أخرى تتقدم نحونا...

رجل مراكش

على منبسط صحراوي و أمام جبال الأطلس الكبير التي تبدو وكأنها تطفو بين السحب، توجد مراكش، مدينة المرابطين. لاحت صومعة الكتبية عند نهاية زقاق طويل مكتظ بشبان منهمكين في صفير الخيوط وتكبيها. في المقاهي، و أمام أشجار مثقلة بالنارنج، كان الناس يشاهدون بلامبالاة مرور الأجانب. حينما اخترق الكوتشي حقول الزيتون الشاسعة المجاورة للمنارة تلاشى صدى حوافر الجياد: كان الصهريج زئبقيا تهاوت فيه قبة السماء كبئر بدون قرار. قبل ذلك قمت بجولة على طول أسوار المدينة إلى أن وصلت إلى سوق الجمال التي يجلبها الرجال الزرق هي و سلع أخرى ، من وراء كلميم، من الصحراء، خلال سفر شاق يبدأ أحيانا من تمبوكتو.

بالقرب من جامع الفنا - حرفيا، " مجمع الأموات" الذي كانت تعرض فيه رؤوس من أعدموا - ترحلت ومشيت. كنت أترك ورائي مدينة عصرية لأتوغل حيث لا يتجرأ الأجانب بين درابزين وأبواب بأقفال كبيرة. كلما تقدمت يصبح تنقلي صعبا داخل ذلك المد البشري. أخيرا، وبعد سوق الخضار الذي تبدو فواكهه تحت ظلال السلال، تظهر الساحة الكبيرة.

كان صوت الغيطة يرن كمزمار إيقاعي رخيم. وبين المجموعات التي تتحرك ذهابا و مجيئا استطعت رؤية العازف النادر يترنح من النشوة وهو يعزف مقطوعة رهيفة. كانت العروض والألعاب تتالى في انتظام: الرماية، ألعاب بهلوانية... الغياطون، فرقة جبليية من منطقة الريف، كانوا ينتظرون حضورا كثيفا لبدء عروضهم. فكرت في الشاعرية التي تحتزنها

حياة هؤلاء الجوالين الرهيفين الذين يعرضون فنهم في مناسبات معينة فقط. أنغامهم تتكلم عن أفراح ومآسي الحياة، عن الحب، الحرب، البطولة، الإنسان...

خطيب يوقظ الهمم. تقدمت حتى وصلت إلى مكان به مصطبات وموائد بسيطة تقدم عليها بلا تكلف طواجين السمك المحضرة على الفحم. كان بعض الزبناء يأكلون الكسكس. بحركات أصابعهم الماهرة والخفيفة كانوا يشكلون كويرات بحبات الزبيب و الحمص، اللحم و السميد الطازج. تأملتهم مدة طويلة إلى أن أرغمني جرس السقاء و هدامه على تغيير زاوية نظري.

من يكون هذا الرجل؟ كنت أتساءل. من يكون هذا المسافر؟ كان يتساءل في نفس الوقت حاوي الثعابين بعينه الثابتين، بينما تنزلق هي بين يديه باردة محرشفة. منجذبا كالزواحف انتبهت إلى تلك البسمة المليئة بالثقب و الذهب و التي كانت على علم بجهالتي. ما سر سلطته؟ كيف لا تنقلب عليه؟ كنت أتساءل في نفس الآن.

في اتجاه الأمام يصبح الجو خانقا بفعل التدافع القوي وضجيج الكتل البشرية. فجأة وجدت نفسي أمام كائن غريب يشرب ماء فائرا ويلوك الزجاج بدون ألم على ما يبدو. ذكرتني عيناه بالجمال وبالنقاشات الصاخبة حول لحمها.

أمام الرجل ذي الأحشاء الحديدية كانت تقام بعض الأهازيج الراقصة وفي البعيد يسمع معدن " القراقب " معلنا عن الراقصين الجهنميين بزيمهم الأبيض والأسود المزين بالودع. سمح لي متسول أن

أزكي ممتلكاتي بينما صوت المؤذن يسمع في الهواء. عازف الناي الساحر يعود جهتي: من أين يأتي هذا المسافر؟ أنا من يبحث عن الطريق، فكرت. أنا العازف الريفى، ابن ملاك الماء، أخ الرجل الأزرق، الكف التي تقرأ الطالع، المسافر في الزمن، أنا الجذاف المجهول في بحر الظلمات، راحلة الصحراء حيث تتقدم القافلة مرغمة في طرق لا مرئية لكن معلومة...

تنزل الشمس إلى الساحة: هنا والآن، في جامع الفناء، يتكاثر الحشد كخدعة غامضة. بين العمائم و الحجب عشرة آلاف عين تراقبني. يحمل الباعة المتجولون في صناديقهم الرؤوس الدامية التي لم تكن لها أبدا أحساد. حان وقت الصلاة و الشمس لازالت هناك، فوقنا: عين حارة محمومة. الفروسية تقام في سماء هذا التجمع. ترن " القراقب الآن كحدوات المبعوث السحري الفضية. الموسيقى و الرقص يصبحان أكثر قوة. كل ما حولي يدور. من يكون هذا الغريب؟ الملاك الأحمر يشير إلي. حاوي التعابين يتسم من جديد. "العمائم القديمة" يشيرون إلي. طبول وقلوب تدق. من يكون هذا المبعوث ؟

ياخذني متسول ضريز من يدي، وبعضاه يضرب في الجمع ويفتح طريقا، أعرف أنه داركان Darkana. نظرات من يراقبونني تقول إنه صاحب بركة. تقع عصاه مرارا على البلهاء الذين يلاقونه. ينظر إلينا الآن برعب مفاجئ. الثعابين القاتلة تبحث عن ملاذ بين السلال بينما تزداد حدة المناداة وتكثر الجلبة. فمي يقول إنني أتكلم وأتعجب، لكن أذاني لا تسمع والموسيقى تنباع كماء فسقية الوضوء. يجزني المتسول بقوة

أكبر وسط الرطانة المصمة بينما الناس يتنحون لكي يشاهدونا نعبّر
الساحة، ساحة جامع الفنا، يقول: " أنت المركز. أنت المحور. تسير إلى
ملاقات نفسك وملاقة الكون وسيدك . أنت والمركزسيان... بدون زيادة أو
نقصان" .

يحاصر الحشد فضاءات جديدة بينما الرجل الصالح يختلط
بالآخرين. لازال خطيب يتكلم باسم الله. أصبح بجانبه الآن حاوي الثعابين
وبائع الماء. من يكون ذلك الإنسان؟ سألت. "رجل مراكش " ، أجاب
مستغربين.

رغبة

كان علي يظل جالسا كل مساء في السقالة، رصيف المدافع. كان ينتظر الملاك الذي تصر الحكاية على إخفائه بين صخور ومدافع القصة، وكان عنفوان شبابه ينساب بنظراته المشعة الشفافة. كان يتطلع إلى فضل سحري. هكذا أمسى شاهدا على الغسق وأصبح موضوع استهزاء من طرف الطلبة الآخرين، زملائه في الدراسة.

في ذلك اليوم كانت سحب المحيط البعيدة تشكل سقفا يأسر الضوء بشكل مختلف، أما هو فقد اكتفى بالبحث عن مكان للجلوس و التضرع في الوقت المناسب لاستحضار الروح التي طالما رغب في ظهورها. أغمض عينيه بقوة وهو يهمس بعبارة سحرية أسر له بها جده ومد يديه إلى الصخرة عازما على شدها بقوة. كم من مرة ابتهل على طريقة أجداده، هو المالك لمعرفة سرية متوارثة منذ قرون، كي تتحقق المعجزة.

هذه المرة بحث بعناية في ذاكرته. لقد كان جد متأكد بأن الموقع الذي اختاره هو الوحيد الذي لم يسبق له أن حاول منه. من جسده انبعثت موجة حارة. فأحس أن قوة خارقة تخرج من كل فتحات جسمه، كما لو أن شيئا ما بداخله كان ينتظر اللحظة المواتية.

شك. أطلق أسارير وجهه وفتح جفنيه قليلا. كان متأكدا. نعم. لقد كان هناك. هزته رعشة عنيفة. تجرأ على رفع بصره فرأى

كيف كان يلمع نور غريب، أخذ شكل صل هائل شعشع من جديد في
أبخرة زرقاء فعاد ليراه كبراق بنظرة مثبتة فيه .رمش ليتأكد من تلك
الرؤيا فظهر له رجل يمشي في الفراغ، من العمامة تخرج نار و البحر
أصبح خضما تحت ذلك الشكل.وحين اقترب كفاية رأى وجه الطيف
العجيب فاندھش حين لاحظ أنه مطابق له: يشبه صورته في الماء.

- بحثت عني بعناد واف. أثبتت أنك تملك سورة أسلافك.إنه اليوم
الموعود- سمع علي هذا دون أن يدرك هل كان هناك صوت فعلا أم أنه
ينصت في وعيه لما يمليه عليه الملاك.

- يمكنك أن تفصح عن رغبتك.دقق الاختيار لأنه لن يسعك

الندم. واعلم أنه لا يوجد شئ ناقص بالمرّة لمقته و لا كامل تماما
لطلبه – سمع علي الكلام يتردد ثانية بداخله.

فكر الشاب مليا ومرت بخلده نصائح جده الحكيمة.خال نفسه لغزا. أعاد
في ذهنه كل الرغبات التي راودته خلال كل تلك السنين وأكد أن الطلب
الذي قرره منذ مدة طويلة يطابق طموحه.

- أريد أن أعرف الخلود، قال مؤكدا كمن يمتح كلماته من الماضي .

- أخشى ألا يكون لك الوقت الكافي – قال الصوت الداخلي.

- ثانية فقط، رد علي بتسرع طفولي.

- لك ما تشاء. ثانية فقط – قال الملاك مليا –انظر إلى البحر.أغمض

عينيك. افتحهما

بنبرة تنم عن خيبة أمل قال علي بعد ما طبق كل التعليمات:

- لم أر شيئا.ماذا حدث؟ لقد أصبحت عجوزا! صاح علي مذعورا.

- وجودك عبارة عن ثانية من زمن الخلود . لقد رأيتك، وفعلت خيرا بطلبك هذا لأنك استطعت أن تديم رغبتك خلال ما تبقى من عمرك ، لكن يجب عليك أن تتعلم أن تنظر جيدا قال الملاك الذي أصبح في تلك اللحظة على هيئة شيخ ورع بلحية بيضاء طويلة.

صمت علي ولاحظ أن المساء كان مختلفا. جديد شكل السحب ولونها. أصبح في استطاعته عد أشعة النور وشحذ بصره ليدقق في زبد الموج. كان كل ثقب صخري يبدو كناعورة يشرب إليها باهتمام. أصبح بمقدوره أيضا فهم تحليق كل طائر بحري وأصبح يرى في كل صخرة موقعا لحدث قديم. بعدما لفة النسيم وحسب الوقت بالساعة والدقيقة، علم نصيب ذلك الصياد الذي كان ينحدر على طول النهر . كان علمه واسعا و الشمس تتدلى من الأشعة.

الكدرة

بالقرب من كلميم، أمام الصحراء المنبسطة كفروة أسد، بعد يوم
 مشمس قاس، في صيهد الحلكة وبين منازل طينية ومنابت نخيل منهكة
 على ضوء مشاعل عديدة، لازالت الحياة تنبض رغم خرابها.
 تستريح الجمال على آثارها الضخمة، بينما يجتر خروف لا مباليا
 في الظل. تحت قلعة متهالكة ومشارف منتصبة متآكلة يبدأ الحفل. أسير
 بين كلاب جائعة قريبة من النار الكبيرة ورجال بعمائم سوداء وجلابيب
 زرقاء؛ الرجال الزرق. بعضهم ينظر إلي بقسوة فألاحظ الكمية على الحزام.
 ترتدي النساء الإزار، وهو عبارة عن رداء غير مخيط مشدود بمشابك فضية،
 كن مزيينات بالحلي و المناديل والخمارات ووجوههن الشامخة. توجد بينهن
 سوداوات رشيقات والأخريات كلهن بربريات، ولكن في كلتا الحالتين
 فاللون ينط من البشرة إلى الزي بدون انقطاع. تنبعث موسيقى رتبية
 في أسفل الأسوار بينما يصعد الغناء المرتجل و الموحى. حملة مهداة
 للحب، للوفاء، تسرع كخب جياذ غير منتظم، وفي صفوف طويلة تصاحب
 فتيات ولعات الإيقاع بخفاف مطرزة على أرض مغبرة.
 يتابع غلام المشهد متكئا على إطار نافذة. ينظر إلي باحتقار.
 بمحاذاة المدخل يجلس رجال آخرون القرفصاء متكئين على قوائم الباب،
 يتناقشون، يتحاجون بإشارات وبحركات أكفهم الكبيرة العصبية. لاشيء
 يربطني، كضيف، بالكدرة ومع ذلك أدخل فأحس للحظة بنوع من الخجل.

ألقى التحية. تعلن احترامات وأداب الصحراء عن مقدمي. نجلس على شكل دائرة كبيرة. أرى أمامي الموسيقين. الكدرة، التي تعتبر أيضا أداة موسيقية تصاحب الرقص، هي عبارة عن طبل على شكل جرة خزفية. تبدو الراقصات مستعدات لبدء رقصة الحب، وفجأة رن الإيقاع في القاعة بنبرات معدنية رائعة. جثت امرأة في صمت وسط الدائرة وهي مغطاة تماما بخمار أسود طويل، ستظل هكذا حتى النهاية، بينما الأخريات، راكعات أيضا، يصفقن حين يخف الإيقاع، أما الرجال فكانوا ينتظرون في أناة.

لغنا غناء رخيم واخترقت حركات رشيقة سكون المرأة. تؤرجح رأسها بتناغم، تهتز قليلا، تظهر يديها، دمالج وأساور. شيئا فشيئا يسقط الخمار عن المحيا، تبدي أناملها المتباعدة بشكل موقع بحركات صغيرة ولطيفة والوجه شاحب، مأخوذ، يزداد شحوبا بالشعر الفاحم المنسدل على الجيد و الجبين والمزين بأرب صوفية وفضة كامدة. ظل الجسد يدور ببطء فوق حصير، العيون المغمضة لا ترى و عيوننا نحن منذهلة، مسامعها تتابع الإنشاد الصاحب، الكدرة، الأكف التي تصفق و تسرع الإيقاع بشكل غير محسوس تقريبا. على شفيتها الفاكهيتين ترسم علامة لذة محتشمة. التواءات الخصر والجيد العذبة المتواترة تستهل تموجات جديدة. بتفتير كبير تدع الخمار الذي يحجبها يتساقط... تلوي جسدها حتى وهي راكعة، الرأس تنكسر، تبدي كتفين منحوتتين ومكتملتين، تهتز، تترنج، تتنفس عميقا، تنتصب، تتربص، وتبرز في اكتمال جذعها العاري بعد أن هدتها الحركة المتواصلة. تفتح مرة أخرى شفيتها قليلا، الإيقاع يجعلها تخب، منتشية، وبحركات تشكيلية غريبة، تهب نهديها للأثير تكرر. الالتواءات

مرة ومرات فتتأجج الرغبة في لحظات كنبضات قلوبنا التي أصبحت نبضا واحدا في الكدرة الموقعة الرنانة.

الصدر، رواق متورم، يتأرجح دافئا وموقعا بينما الضفائر تجلد الورديات والحلمات الصلبة: كرزات منتصبه وسط عناقيد بشرة فتية شديدة البياض. على الخصر الضيق ينسدل اللباس مرتعشا مع اللحن الرخيم الذي يغمرنا، والآن تنساب الضفائر كحيات على الظهر والنهدين، حيث تتغافز بين أودية وتلال. حين يهتز الشعر يطير أمامي فيشرب الحواس بعطره. شهوتنا تكاد تنفجر بينما تعلن هي من خلال رقصها عن حالها الضاري. الوجنتان بنفسجيتان، الوجه يتصبب دررا، الكفان الملمحتان تداعبان النهدين المستديرين حين تنهار داعرة منحنية إلى الأمام، على مستوى الأرض، على جنبها، إلى الورا، إلى الورا أكثر، في اتجاه السماء التي تتخيلها زرقاء بينما تحجب عينيها بجفون صقيلة.

ضربة أخيرة، بعدها خب الطبول السريع و المعاصم الهائجة، صرخة، عويل، نهائي، قطعي. تسقط هي فجأة وسط الدائرة، تنهار منهكة. ينبني الصمت ثانية. فقط يبقى جسدها هاجعا كتلال المساء الدافئة.

المحارب

تقدم مكلوما في جناح الظلام. جواده يحتضر. كان يتصب عرقا بينما بقعة الدم تتسع على البرنس. أدمى أصابعه حين سقط ولكن رغبة قوية كانت تسنده: الوصول إلى تزيت، الموت في مدينته محمي بأسوارها الحمراء. كانت الحمى تلتهمه و الفم يبدو مكتسحا بالطين. وفجأة اشتعلت السماء بالشرر. إنها إشارة، إشارة خير ... تكلف الإسراع. كان يحس أن لحمه ينتفخ، متورما، بشعا. لكن الألم يستمر حول الخنجر البراق تحت اللمعان الغريب الذي تلا تساقط النجوم.

في المدى تشع أضواء بلدته . وبينما هو يتقدم تبدو أشكال أخرى أكثر وضوحا. بيد أنه كان يحس أنه يتعد، كلما تقدم خطوة إلى الأمام، تبدو الأسوار و المتاريس، الأبواب الكبيرة و المساجد، كل شيء كان يبدو وكأنه يتقلص ويصغر وكأن الأرض تسير بسرعة وفي الاتجاه المعاكس. أصبحت الأرض منبسطة وبدون انكسارات. لم يتوقف الألم، ازداد حدة. أحس كيف تنقطع أنفاسه. الموت تقترب، قال في قرارة نفسه. استمر الوميض الذي بدا جليا أنه ينبعث من لباسه. أغمض عينيه. قوسه تشنج فخر منبطحاً. تلا ذلك تقصف أوراق جافة ولكن سمع أيضا صراخا وعويلا. فتح راحتيه ليتكى على الأرض فأحس برطوبة دافئة تندلق بين ساقيه. تأكد أنه يسبح في دمه. استمر النواح بين ضجيج يشبه انهيار أسوار. كانت الأصوات واضحة: تطلب الرحمة، الأطفال يكون، حشود مسرعة، نغاء خرفان نافرة... تهاوى بجسده المتصدع. فتح عينيه فاكشف مرعوبا حجمه أمام

مدينة صغيرة جدا يدمرها وهو ينهار على دورها وأسواقها، ساحاتها ودروبها.

كانت جبهته تضغط على المدرسة وكفه حين تنزل متشنجة ومرتعشة تلف المقبرة. أمام عينيه تنهار مئذنة بقرميدها الأخضر على خده. ظن أنه فقد الوعي وهو يدمر كل ما يحيط به، المباني أصبحت رميما و الرجال و النساء تحت الانقاض.

هذى. أغمض جفنيه ببطء، لكنه رأى نفسه يسقط ثانية فوق المدينة المدمرة بسبب حجمه الخارق. ورغم أن الألم يبدو الآن كفتور يصعد ويبدأ حتى الرأس، كان يعلم أنه ثلوم. في كابوسه المتكرر كان يراقب بدقة أين وقع ذلك الحدث الغريب. وفجأة رأى نفسه يتعثر ويختفي مسحوقا تحت نفسه، ويموت هكذا ثلاث مرات في نفس الآن. بمجهود كبير فتح عينيه، كان يحتضر، الخوف يتصاعد. وسط الحلم جال بخاطره سؤال، كلعبة المرايا. حاول أن يتذكر. بداله كل شئ مألوفاً.

في الصباح الموالي، و بالقرب من سوق تيزنيت، وجدت جثة رجل نازفة، ومع ذلك كانت البسمة على محياه.

الرجل الأحمر

إلى برناردورويث

كان بورنا زيل دائما عدوا مرعبا، جسورا، ارتدى منيعا خلال مائة معركة برنسه الأحمر. لقد عاينت بطولاته ووحشيته في واحات النخيل قرب سجلماسة، ذلك الوادي المغبر والمحتضر الذي أوت 650 من قلاعه أولياء وقوادا من كل السلالات الإفريقية. كان الرجل الأحمر يلاحقنا بعناد منذ تافيلالت حتى صخور جبل صغرو الوعرة القائمة الفحمية. كانت الخطارات ممتلئة بالرمل والأرض بصدوعها وربوعها الجافة المشتعلة تعاني مرور الرماة. لقد كانت أوقاتا عصيبة والانتصارات التي يقودها بلقاسم نكادي ، قائدنا ، كانت تتوارى ما أن يسمع اسم العدو. لقد كنت كاسرا، أضرمت حرائق وبقرت بطونا وقطعت خصيات بؤساء، هددت مسعورا قبائل عديدة وفي طريقي يصطبغ كل واد بخيوط دموية. لكن بورنازيل المحموم كان يظهر بين البارود و الطلقات، كان فارسا رائعا وثاقبا وكان قاسيا مع المتمردين. لم يستطع أحد أن يعرف، رغم حضوره الواضح، لماذا يجله غطاء واق فوق مطيته الجسورة الوثابة. كان كعفريت خلق في الصحراء. و كان يثق دائما في هندامه حيث كان يردد أنه مصدر يمنه.

البارحة وقبل الغارة الأخيرة أقنعه أحدهم أنه سيكون هدفا سهلا مرغما إياه أن يرتدي جلبابا جزائريا. أثار القتال رصاص وفحم الفلاة. كانت الجثث ملقاة فوق روث الجياد التي خلق بولها عجينا نتنا تحت حوافرها. على الأرض كان بعض الأوفياء يبحثون عن الجرحى للإجهاز عليهم. ومع ريح السموم اختلط الأمر على كثيرين فانهالوا كالجوارح على رفاقهم في ارتباك مطلق. بدأ المساء يصدأ. في الجلبة لمحت بقايا معصرة ووسط الدوار رأيت بورنازيل وقد هيجه الدم الذي يحيط به. كان يصرخ بشكل

رجولي ويعطي أوامر دقيقة وصائبة. لأول مرة كان "الرجل الأحمر " هناك، مجردا من درعه القماشي. كان يتقاطع مع المرتزقة الذين يلهثون مختنقين بعطن الروث. تسللت خلسة حتى ساكف متهدم. وفجأة ركز نظرتة العنيدة، المقطبة. في تلك اللحظة شحذ نور المساء بصري. رفعت البندقية وانتصبت مستعدا لمواجهته. أدرك بدون دعر القدر الذي ينتظره. كر الجواد فشد اللجام دون أن أغيب عن ناظره. صوبت بدقة. ترددت لحظة مفتتنا بكبريائه. ضغطت على الزند. انهار: حين سقط كان صدره أشلاء. جره الجواد الجسور عدة فراسخ مفسخا جثته. يقال أنه سيوارى التراب بيرنسه الأحمر في الريصاني. فليرافقه حقدى.

حكاية من سلا

انتظرنا أسبوعا راسين قبالة جزيرة كابريا Caparaia أمام جبل كاسطيو Castello وحين تقرر الإبحار في اتجاه جزيرة إيلبا Elba تأكدنا أن اللحظة تقترب. اتجهنا جنوبا حتى رأس ريبالطي Ripalti فوق جبل كباني Capanne كان المراقب الذي تسلل ليلا بين حقول بيلا ما رشيانا Villa Marciana يرصد بدقة مضيق بيومبنيو Piombino. طويت حبلا بينما كان الطاقم ينام القيلولة بين سوارى السفينة. كان الهواء البحري يهدد شعر عروج المشتعل وكانت لحيته في ذلك المساء شعلة حمراء. على مؤخرة السفينة كان ينتظر الإشارة بنظرته الضارية المثبتة على اليابسة. وفجأة هيجت صيحة من كانوا على الجسر. رفعوا الأشرعة وبدأ المحكومون التجديف، أخذنا مراكزنا وبدأت السفينة تبحر في اتجاه خليج فويونيكافولونا Follonika .

من الصاري جاء الإخطار: سفينة في الأفق! تحت شمس رائعة كانت البيارق الورقية ترفرف فوق زوايا مقدم السفينة. كان عروج يعطي أوامره بعينيه وبحركات حازمة من ذراعيه ويديه. تقدمنا بشكل ملتو حسب الخطة، متأكدين قبلا أنهم رأونا . بعد ذلك تالت الانعطافات حيث كنا نميل باستمرار، تاركين الأشرعة مطوية أو في مهب الريح عن قصد، كان يجب علينا أن نعطي الانطباع بأن السفينة بدون قبطان، لدرجة أن القائد باولويكتور Paolo Victor وطاقمه ضحكوا منا. عندما غيرنا اتجاه السفينة

طقطقت السواري وبأشركة مطوية مررنا أمام الغليون وبخفة غيرنا سيرنا فأصبحنا مدفوعين بالريح. نكس دقل السفينة فتغير مجراها وهكذا اقتربنا بغتة من الميمنة. لاحظوا مرتبكين كيف كنا نخرج من كل الجهات، كانت عمائم رجالنا تلف وجوها دابعة. أعطيت الأوامر بعدم استعمال المدافع لكن السهام كانت تصفر بين السلاسم، كانت تصل مميتة حين اقتحمنا نحن العرب السفينة. وفي دقائق قليلة استولينا على مركب خوليو الثاني بينما المسيحيون لم يستفيقوا بعد من وقع المفاجأة. أمر عروج بطي أشركة غليوننا لكي يتم سحبه وطلب من الجدافين خفض الإيقاع. وبعدها تم خلع ملابس الضباط والبحارة تم وضعهم تحت جسر السفينة.

ارتدينا هندامهم وقررنا انتظار السفينة الثانية؛ غنيمة كبيرة أخرى آتية من جنوة في اتجاه تشيبيا Civittaveccia . ساعة بعد ذلك، قبل المغيب ، مرت المركب على يسارنا. أعطي الأمر للجدافين بالإسراع وبمهارة وبمساعدة الرياح دنونا منهم. أمام خصوم مفاجئين أكثر من الأولين استولينا مرة أخرى وبسهولة على السفينة. ذبح رجلان بدون جدوى، ومع آخر أشعة الشمس قذفنا بالقبطان بيكتور وطاقمه إلى البحر. كان مراقبنا ينتظر على متن مركب صغير قبالة إلبا Elba . بسرعة، وفي جنح الظلام، أبحرت السفن في اتجاه تونس .

لكن كل هذا وقع مند زمن بعيد، قبل أن يموت هرادين HARADIN . أما اليوم فيغشى الحزن عيني. تصل المراكب إلى سلا بدون غنيمة أخرى سوى هذا العجوز الأعمى، أسير، واهن وحقير مثلي... قلبي قلق. الحمد لله رب العالمين فالبؤس أكبر من الليل ، جرح مفتوح في جلدي الخشن

والعميق. آه، الشباب و البحر، الغزوات، الحريق، نهب السواحل والمراكب
المسيحية، الغنيمة، الأسرى، نساؤهم المرتعشات! الشمس تغرب هناك
أيضا، القصة تحمر، تنهار، نعم، كأيامي، نعم أيامي أيضا معدودة،
نعم، سأموت، نعم، هنا أيضا، نعم هنا، في سلا...

سحنات

الرباط في المساء مدينة محمرة الأسوار. أتجول قرب أحياء عامرة
محاذية للأطلسي. من الكورنيش يخز الصيادون البحر بقصباتهم الخيزرانية
الطويلة، وأسراب الأطفال، بين تعرجات المجرى تلاحق وتتغلب على
السرطانات. كلاب عديدة تشم بين اغتياب الباعة و العمال، الذين يجتمعون
الآن ويتحدثون جالسين في انتظار الغروب.

رياح الشرقي تعبر هنا عن الصيف الذي يبلل ويصمغ الأقمصة و
السحنات التي أحاول أن أتذكرها لحظات بعد رؤيتها. ألتفت وأضع
ذاكرتي على المحك. حينها تبدو كل الوجوه مختلفة. بتقاطع بارزة جدا أوجد
وسيمة، عيون عميقة تعوض أخرى كانت تبدو جاحظة، والآن تتغير الذراع
العارية، الرأس، الحركة وطريقة جلوس القرفصاء أو الكلام بصوت مرتفع في
نسيم هذا المساء الوشيك، هذا ما أعتقد ، بين محيط لامع حيث يقاس الخيال
بأسطرلابات بلورية. أنحدر جهة المصب المقابل للمدينة القديمة المجللة
بالضياء كخمار من الخبازي فوق الشرفات.

كل رجل يحمل وجها ملغزا يتغير بسرعة مع ظلال الغروب. تلاحقني
عيون الناس ومنها يطل الإحتقار و الشفقة و تنغرس في الآن نفسه في
ظهري وصدري. أحيانا يغمر زبد الموج الصخور الوعرة حيث يقوم بعض
الشبان المغامرين بحركات بهلوانية. أصر أن أستعيد من الذاكرة القريبة
الوجوه العريقة، البدوية و المحيرة، فتظهر ملامح جديدة، جباه مفتداة،
التناسق الإنساني الرائع في حركات محكمة ودقيقة. أعتقد أن أحدهم

يناديني ولكني أتابع سيرتي، أبحث عن الصوت المنادي بجانبني، ورائي، أمامي، على الشرفة الصخرية السوداء التي تمتد، حتى البحر، في الرصيف المقابل حيث ترفع وتحرك بعض الفتيات أذرعهن أمام الجدران المبيضة.

أسرع حتى أصبح في منأ عن الأصوات التي أعتقد أنها تردد اسمي. أتوقف بغتة فاكتشف محبطاً أن لا أحد يبحث عني. في البعيد تهتز قصة من اختلاجات سمكة علقت للتو. أترك المنحدر وأحاول الإقتراب عبر البلاطات الصخرية العريضة، متجنباً المياه المالحة للجداول الصغيرة، حتى الصياد الذي تغلب على بلم مقوس ومحرشف. الطيور البحرية تحاصر الإحتضار البحري كما تفعل مجموعة من السذج و الفضوليين الذين لا يابهون بي فأرى في حركاتهم علامات ذكاء ووجوم، ومع ضوء المساء المتحلل يبدو منظرهم واحداً ومتعددًا في نفس الآن. يفك الصياد السمكة بمهارة كهنوتية وتحت حمرة الشفق الغرنوقية تخرج نظرتة من الظلمة وتبتسم وسط المساء الذي يتأكسد.

أعود إلى الزقاق بين العمائم و الرؤوس الحليقة، بشرات داكنة وزيتونية، بيضاء وعنبرية تتقاطع عند مروري. من خلال اللباس أعرف أن بعضهم يتجه إلى الحي اليهودي، الملاح، الذي يطل في الرباط على المصب. حين يبدأ الإشتعال الذي يسبق الليل تبقى أمام ناظري مقبرة المسلمين. وفي الجهة الأخرى يتسع مصب بورقراق و يلج النهر البحر كجدعة دامية وداكنة.

أتابع سيرى على الشاطئ مبلا قدمى. أثار غرات دقيقة تتلاشى
مع الأمواج التي تصل حتى الضفة الأخرى. من هناك تبدو سلا نذيرة
عزيزة. ملمس صحراء فاجأه المطر ينساب بين أناملي حين أحس الرمال.
أعلام كل الصوامع تعلن اقتراب الأذان.
يسرع رجل فيتغير كل شئ فيه ثانية ، يدخل في تحولات متتالية،
نظراته، منكباه، ظهره، طريقة الانحناء والإحساس بالقلق البادي حين تلج
الشمس في المحيط ويتركاني معا في عزلتي. يعلن الأذان ويسقط النهار
في حنجرة رطبة وبنفسجية. سلا تشتعل. الرباط تضيئها حياحب المشور.
سرب جياذ في اتجاه البحر يهز أركان الليل. وجهي أيضا يتبدل.

النوم يكفني

صرامة الليل تزحف تحت سقف من الأنوار المتقطعة. متكئا أرى الليل يمر. أنتظر. عيناى تنقبان بين الظلال فأتبين أشكالا متلاشية حين تشرع أقواس الشرفة المقطعة بالزخارف الجصية على الفراغ. أشاهد طبقات سديمية سميكة اقتلعتها الريح من بورقراق تطفو في الهواء. البحر يزيد في المدى و المدينة تنام غير دائرية بالبطولات السحرية التي تشهدها أزقتها العتيقة و المتعرجة.

من الضروري التذكير بمزايا العتمة والإفادة من الأرواح الطيبة والشريرة الثاوية بين ثنايا فضاءات أنسجتي الكهفية. في القلب وفي نبضاته دربوكة تردد إيقاع الثواني الدائم. أحك يدي فتلهبها صحراء. أعتبر حينئذ أن الزمن المنصرم حياة، ومع ذلك، غير كاف. كهمس شمس الضحى الحزين و العذب أسمع أصوات نساء في الواحات وأحس في الصدر حضورهن الذي يحيي بعنف إحساسا بالفراغ والهجر. بدون شك فهذه بوادر الأرق الذي التمسه من سيدي الياهوري، ولي المصب.

بين اختمار الحلقة تخترق آية الفضاءات. يرن صداها في حارات وأسوار، في إصطبلات وتحت البوابات والأفاريز. هي صيحة تنادي البعث، بينما الرياحين ترشف ندى الشط و يتكاثرالزهر بين الأوراق.

والآن الرحيل قلق يجتاح البشرة ويقشعرها، الرحيل هو الهواء الثقيل حين نتنفس، هو مسخ منقض علي، الرحيل وعكة، حنين مسبق

يعتريني تحت شجرة التين في المقهى المغربي CaféMaure، خوف من
 عدم الرجوع وترك الأحاسيس يتيمة واليدين موضوعتين على الأشياء...
 النظرة الشاردة إلى الأبد في موج الشاطئ... الرحيل عتاب بعدم سماع
 النداء وضياح الفرصة ذلك المساء في غرفة فندق، لكي ترى بعد ذلك
 فقط هذا البحر وهذه القارة أمام جبل طارق، بدون أن تفهم وأن تعرف أنه
 يصل إلى هنا. أين أترك الآن الحسرة، الإمكانية العابرة لما كنته في سلا:
 قرصان الكتب والذاكرة الجمعية، غريب مطارداً، منحور ومهان، دخيل على
 نقوشات الأقواس و البوابات.

غدا سيكون الليل قد استسلم ولكني الآن أقاوم مرور
 الزمن. أنتصب . أمشي متعثرا. لازالت الظلال تبدو مألوفة .ممكنة التكهن.
 أمد ذراعي إلى الشرفة المثبتة على الخشب. أصمم وأتقدم. من خلال
 العقد ألاحظ مرور الضبابة وهي تلتئم كالعبارات. متكئا على هذا الدربزين
 أحس أن جزءا مني ينساب أيضا في اتجاه الفراغ العتمي. دعاء كالنجيب
 يمخر الفضاء ثانية ويلج مسامعي رغم أن لا شئ يقول

أنا نملك جسدا. أنتف شعري وألاحظ كيف تخرج أفكار تطفو الآن في الندى
 الغسقي. وفي السحاب أرى الرجال الزرق تخب و أمام عيني يمر ملتعبا
 تاريخ المغرب.

أسمع موسيقى. في الأسفل تبدو الخيام كتلال مضاءة. مئات الخدم
 تلجها بأطباق الوليمة، إنها الضفة. بين الأنغام والإيقاعات أحرز ظل راقصة

تظهر خاطفة في دورانها. بعيدا عن هناك كان الحراس المسلحون يراقبون برباطة جأش. حينها أحس وصول فاطمة. أراها بشكل ما وهي تائهة في الضباب و في كفي اللتين أفتحهما لأقبض محياها، أعتقد أنني أراها تركض، بشكل موقع ومضبوط، كما فعلت على شواطئ تمارة. تنزل الآن إلى أعماقي كما إلى خطارة يحفرها الأطفال بيديها . يداها هي، اللينة و الماهرة، تبيني من الداخل. أغمض عيني. أجزم أن هذا غير ممكن. ولكني أعلم أنها تتجاوز الآن باب الحديقة الحديدي بينما يغرد الماء في متاهة، تصعد بحركات مريبة إلى السطوح، تجتاز البهو، تمر أمام جناح الفروسية، تصعد، نعم، إنها تصعد... يمر طيفها في الأروقة. لا أسمع شيئا. القفل لا يفتح. موسيقى أخرى تجتاح الإقامة لكني أسمعني أنبض تحت ثياب تهتز بحركات خفيفة . هل هي هنا؟ ربما يجب أن أحس الآن دفئها القريب. حسد يعصرني. بدون أن أتجرأ النظر يبدو أن بشرتها تغلف بشرتي التي اشتعلت . التفت ويدي اللتان لا تلمسانها تخترقانها رغم ذلك، تلمسان هيئة كاعب، أسقط الخمار و الملف فأقتنع حينها: ظهرها صفحة. وميض اللهب، في الأسفل، يخلط أفكارني . فاطمة تموج مع الموسيقى الراقصة وأنا أطوق ظلها اللامادي. بعد ذلك نعيد تكرار عباراتنا الحارة، توسلاتنا و الوعود التي تبادلناها سنوات خلت. تذكرنا فرحنا في البساتين ، همساتنا وأسرارنا أمام أكداال. أسعر حوضها الشهواني. صراع حسدنا يعتصرنا. نتضرع بقوة لثمرات الأحشاء فيحكمننا ميثاق غريزة البقاء المتبادلة.

تستبد بي المهانة، الإحساس بالكدر و الشيخوخة التي تحل مبكرة قبل طواف الصحراء، بينما في بحر مجهول تتربص الوحدة و الموت. فاطمة تهرب مني، تفر فأدخل القبة التي أصبحت كهفا كثيبا و حالكا. أناديها، أبحث عنها بحركات أذرع فزعة. ترن ضحكتها فجأة هناك. أتقدم نحوها. تضحك أكثر. أتابع التقدم وفي ضرارتي أجهل مكاني. شيئا فشيئا تنجلي مرايا صالة رائعة. إنها هناك في عريها، في المرايا التي تفر فيها الآن كثيرة، متعددة، فيغيب صوتها تاركا المجال لهمس الماء المتدفق من الفسقية.

مرة أخرى يصبح الغيش ظلمة مطلقة. ألتفت جهة الإيقاعات البعيدة وهناك أجد ثانية الأروقة و الضباب الذي يتصاعد، الخيام و حلبتها، النيران و الحرس، الليل، ليل طويل مطلسم. جسدي فاتر. حرارة يونيو خانقة. وجهي يتلأأ عرقا. رائحة ياسمين زكية تنثر في غرفتي: إنه عطرها الذي يسكن أجزاء جسدها الأكثر نعومة. لهذا أعرف أنها كانت هنا... مستلقيا على ظهري لا أرى سوى الرداء الفاحم، أغمض عيني فيعتبريني نور داخلي. غيابها الآن هو استحواذ الرغبة، شلل جسدي بطيء، أرفع ذراعي فلا أجد شيئا، تتهاوى من جديد فارغة فوق السرير. والأيام التي انصرمت هي شكل من أشكال الموت لأن لاشئ غدا سيرافق قصتي الشخصية، العديمة الأهمية. شئ مني، يتعذر استرجاعه، يبقى في سلا و فاطمة أصبحت امتلاك حاضر ملتف يجتاح الماضي. ستظهر كساحرة في أفكارني التي لا تنتهي وهكذا سأملكها ثانية، كما الموت المراوغ .

ألتفت. أدور حول نفسي. إنني أعني ثقلي. أتخيل نفسي أؤدي ما
بذمتي من دين، ما استهلكت، قائلاً نعم، سأعود حتماً، أيام قليلة
تكفيني، انتظروني. سيقول عباس إن الطيب اعتل كمداً. سأترك في صرة
اللباس المطرز فوق الوردية الفاسي. في الموعد تماماً. ولكن غدا هو
اليوم؟ لماذا أتسلم البرنس الأبيض وأقبل جبينه؟ وماذا لو قررت الآن
العودة إلى المتاهة؟ ربما أنا فيها؟ من الأفضل أن أتخيل أنني أحلم وفي
البرك يرتمي الأطفال في بحر الدار البيضاء والأطلس الكبير المثلج يرنو
إلى الصحراء. ماذا لو كنت محارب تزيت فأستعيد وعيي وأطلب كدرة من
فاطمة، أو أمكث بين عدة الجمال؟ وماذا لو أحرق كتاب كانييتي CANETTI
وأحزم أن البربر هم وحدهم كانوا قساة؟ أو أفتح أوردتي حتى أجمع
قطرات تضامن وأخضب الملاح؟ وإذا كان الوحي واحداً و الديانة الوحيدة
هي عدم امتلاكها؟ وماذا لو أنزل الآن وأسقط المشاعل و الخيام وألوث
الوليمة وأنزع أساور الراقصة الجميلة وأداعب فخديها وأتحدى الحرس
لكي أضرب بالعصي ويصبون علي جام غضبهم، بينما الدم يتخثر ويمتزج
بالتراب، هذا التراب، تراب سلا، لأعرف كيف كانت آخر لحظاتي؟ وماذا لو
كنت جباناً وانتظر الغد و أعود وأقول نعم، سأعود حتماً، وأحتسي آخر كأس
شاي برشقات صغيرة وحين أخرج أودع متصدقا على أصدقاء في
أسمال....؟

ولكنني الآن أغوص هنا كما لوفي رمال الصحراء. أنظر إلى الساعة
ولا أتوقف في فك رموزها. أتصب عرقاً أكثر من السابق والعطش يثلم
شفتي. فوق المائدة أجد جرة وكوبا، الماء يظهر بالكاد من خلال قرص

لجين يلتمع بين نور خافت لقمر مغرور وشاحب يدخل إلى الشرفة. أحاول أن أبلغه لكن أعضائي لا تستجيب. إنني مشلول. لم أعد أسمع الدربوكة لكنني أرى وأفكر. هل أرى حقاً؟ إنني جامد. أعرف أن صومعة حسان في الخارج تحيي النهر وأن نفس الطقس يتكرر. أموات شالة أصبحوا معي. أغوص، فقط أدرك أنني أغوص... رمل ناعم يسقط في مقلتي ومع ذلك لا زلت أتأمل عالماً ليس لي. النوم يواريني. إنني ذاهب الآن... لا تفكر أكثر، لن أفكر... إنني أستريح بين السلاطين و الشحاذين... يارب يا رحيم... الآن... أنمني... أنمني... هنا، في سلا.